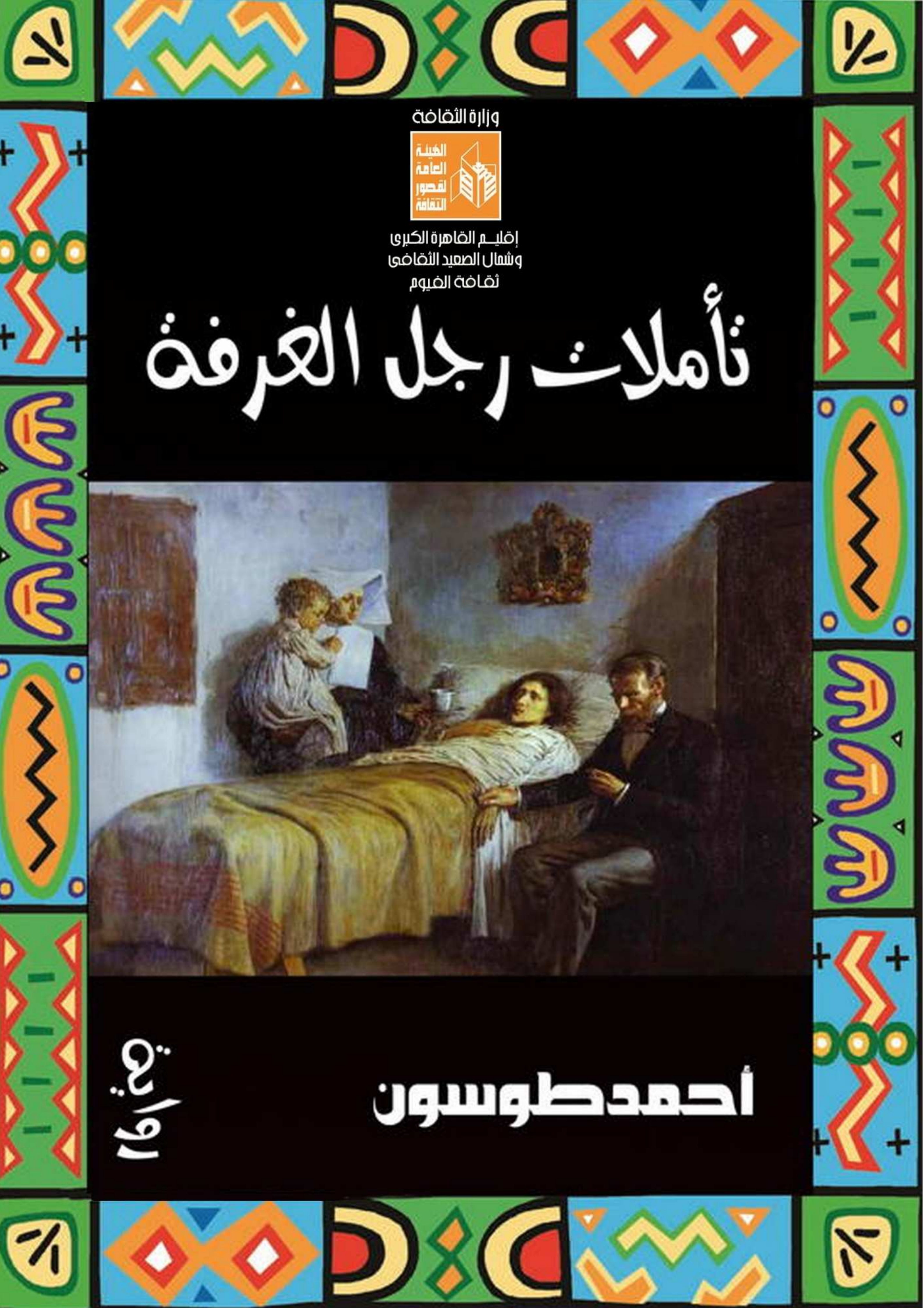


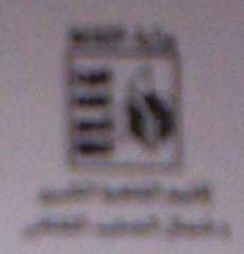
وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم القاهرة الكبرى
وشمال الصعيد الثقافى
ثقافة الفيوم
تأملات رجل الغرفة
رواية
أحمد طوسون

الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم القاهرة الكبرى
وشمال الصعيد الثقافي

تأملات رجل الغرفة

رواية

أحمد طوسون



الهيئة العامة لقصور الثقافة

إهــداء:

إلى من يملكون يدا ترسم زهرة في حياتي وبسمة بالقلب..

إلى يوسف وزينب وريم.

أحمد طوسون

من الغباء أن نموت بعيدا عن قبرنا.

مالك حداد

١

بدا كل شيء حوله يشبه صمت الموت

الجدران ببياضها المشوب بصفرة مؤلمة.. زجاجة المحلول التي رقدت باستسلام فوق الحامل المعدني بعد أن فقدت عافيتها وأصبحت ممصوصة وتوقفت قطراتها عن التساقط البطيء.

"السرنجات" التي تركها المرضون عارية فوق "الكومدينو" المجاور لسريره دون أن يفكر أحدهم بإلقائها إلى سلة المهملات.

تتراص إلى جواره الأدوية كقطع شطرنج تساقطت في عراك مميت بين الأبيض والأسود لم ينج منه أحد.

كلوحة سريالية تتناثر على الأرضية البلاط قطرات قانية لدم متيبس. لا تعطي الملاءات والأغطية والستائر أي إشارة على وجود الهواء بالحجرة.

خيط واهٍ من الدم يسري في العروق ببطء.. بدأ يفيق شيئاً فشيئاً.

حين حاول فتح عينيه بدا كأنه ينظر إلى مرآة صدئة مقشورة لم يتبين فيها شيئاً.. باستسلام أرخى جفنيه.. شعر كأن جحافل من النمل تسير ببطء فوق جسده.. في أذنيه يدوي شيء يشبه الريح الصغيرة.. حاول أن ينبه حواسه وأعضاءه فلم تستجب.. وربما عاد في غيبوبة جديدة.

لا يعرف كم مر من الوقت.

رائحة "الديتول" كخيط من الدخان الرفيع يغزو مسام أنفه.. تنزاح كخيوط مخاط رقيقة.. بدت الحياة كطائر صغير يريد أن يهرب بعيداً.. حاول بكل قوته ألا يعطيه الفرصة.. أزاح ثقل أجفانه وفتح عينيه وقبض عليه بكفيه.. رأى نقاطاً سوداء كبيرة.. ظلت تصغر وتتضاءل حتى تلاشت وبدت ملامح وتفاصيل الحجرة تختبئ خلف غلالة من الضباب.

رأسه ثقيلة وباردة مثل بالون كبير مليء بقطع الثلج المهشم.. شيئاً فشيئاً استجابت أعضاؤه للمحاولة.. رفع ساعده حتى يتمكن من رؤيته.. وخزه الكانول المثبت بشريط لاصق فوق ذراعه.. رأى آثار الجروح وسحجات وكدمات.

لا بد أن حادثاً كبيراً وقع !

....

على وجهه مزيج من الرعب والألم ولفائف من الشاش الأبيض تغطي آثار الجفوت والمقصات المغمورة بالمطهر.

سمع صريراً لباب الغرفة ورأى معطفا وقفازاً أبيضين يدنوان منه ويتفحصانه.

راودته رغبة أن يختبر حاسة الكلام، لكن المعطف والقفاز انصرفا قبل أن تتمكن الأحبال الصوتية من معاودة عملها وتركا باب الغرفة موارباً فشعر بلسعة برد طازجة.

لحظات وانفتح الباب عن آخره ودخل ثلاثة يرتدون معاطف زرقاء باهتة؛ أحدهم ربط جهاز الضغط بساعده ووضع سماعة على صدره وبطنه.. الثاني رفع جفنيه بقفازه حتى جحظت عيناه وظل يحملق فيهما.. أما الثالث فانشغل في رفع بطاقة المريض عن مؤخرة السرير وتدوين بعض الملاحظات بها.

كانوا يثرثرون فيما بينهم..

ظل يسترق السمع ربما فهم ولو لفظة واحدة.. لكنه لم يعِ شيئا.. كابد حتى خرج منه صوت بطيء مثل أنّة ألم.

- **لِم أنا هنا؟؟؟**

توقفوا في لحظة واحدة عن الثرثرة.

لكن أحداً لم يرد عليه**..** لم يعرف إن كانوا فهموا لغته أم لا**..** بعينين مرتابتين تفحص نظراتهم الجامدة وارتد آسفا**.**

لم يكن عليه أن يتلفظ بكلمة**..** شعر بأعضائه تتداعى والعرق ينز من جسده.. خطر على رأسه أن يكون سؤاله خطأ فظيعاً لا يتحمل عواقبه.. زاد من هواجسه ذلك الصرير الذي يتصاعد كأن كراكيب العالم تتداعى فوق رأسه.. هدّأ من روعه دخول عاملين إلى الغرفة يجران نقالة.. تأكد الآن أن احتكاك عجلاتها بالبلاط كانت وراء ذلك الصرير الفظيع**.**

تتدافع العجلات في الممر الضيق الطويل حتى كادت النقالة تصطدم بالجدار عند نهاية الممر قبل أن يمسك بها أحد العاملين.

الثاني ضغط على الزر فأضاء وانفرج باب المصعد.. دفعا النقالة إلى الداخل وترجلا خلفها ثم وقفا إلى جواره كتمثالين يحملقان في السقف المصقول.

انقبض قلبه وشعر بدوار خفيف صاحب هبوط المصعد إلى أسفل.. تاق إلى غيبوبة جديدة تخلصه من تلك المتاهة التي لم يكن يعرف إلى أين تقوده.. بيديه يقبض على مسندين من المعدن بجانبي النقالة.. إذا تراخى قليلاً فربما لن يجد سوى سقوط سحيق.. شعر بانقباض أمعائه وانكماشها ورغبة في القيء زادت مع توقف المصعد الفجائي.

مع انفراجِ الباب وتسلُّلِ الهواء إلى صدره ارتخت أمعاؤه.. عاد العاملان ودفعا النقالة إلى خارج المصعد وسارا بها في بهو واسع، تتراص في جوانبه أصص لأشجار بلاستيكية قابضة رغم ألوانها التي تتنوع بين الأحمر والأبيض والأسود.

كان يحاول أن يشرد بفكره ويذهب ببصره نحو مكان آخر، لكن لم تسعفه التفاصيل.. دائما يصطدم بجدارن صماء تعزله وتعيده إلى هنا.

لم يعد يشعر برفيف الحياة بين أعضائه.. ما أصعب تلك اللحظات التي تتشابه فيها المتناقضات فلا يبدو الفارق واضحاً بين الموت والحياة.. المرض والصحة.. الظلمة والنور.. الوهم والحقيقة.

تلك النقالة التي تحمله ما أشبهها بعربة نقل الموتى.

هل يقفون هناك الآن ينتظرون جثمانه ليتكبدوا مشقة السير مئات الخطوات حتى يلقوا به في حفرة وحيدا وينثروا حوله الأزهار والدعوات قبل أن ينفضوا عن أنفسهم غبار ذكراه عائدين إلى حيواتهم المليئة بالصخب..

أم يتركوه في تلك العربة الحزينة دون صحبة؟.

لم يعِ منذ متى ترك البهو الواسع وسار في ممر معتم بلا نوافذ أو إضاءة.. بالكاد يتقدم النقالة عامل من الأمام ويدفعها الآخر من الخلف.. بينما تندفع في طريقها كعربة مترو تعبر نفقا معتما إلى حائط أصم.

كان من الصعب عليه ملاحظة الزمن والإمساك به.

ظلت الأحداث تبدو فجائية – أو كما ظنها – حين لم يجد العاملين بجوار النقالة ووجد نوراً أبيض يتداعى من خلف زجاج باب مغلق.. يشبه سحابة كبيرة لا تكشف عما خلفها.

أما هو فكان يشبه مومياء داخل تابوت أُغلق منذ آلاف السنين، في انتظار أن يكتشفها أحد.

انفرج الباب الزجاجي وتدافعت كتل من النور الأبيض تشبه الدخان الكثيف بينما كانت العجلات تصنع صريراً بطيئاً.

ظلت عيناه للحظات تحدق في الأبيض المصمت دون أن تتبين أي ملامح.

كان يريد أن يصرخ.. أن يُحدث أي حركة تكسر حدة هذا السكون. أخفق أن تخرج أنة ألم.. يبدو أن الصمت يلازم الذعر ويتخطى الألم.. لكن سرعان ما انقشع الصمت وتردد صدى طرقات منتظمة ربما لقلم فوق جسم خشبي. انزاح البياض المصمت وتراءى أمامه مكتب عريض واسع، يجلس خلفه رجل يرتدى بذله أنيقة كاملة بربطة عنق تتصدرها صورة. توقف الجالس خلف المكتب الخشبي عن العبث بقلمه وإحداث تلك الدقات الرتيبة.. حرك شفتيه وقال بصوت بطيء وخامل:

– حمداً لله على السلامة.

لم يعرف بِمَ يجيبه؟.. هل يستطيع أن يصف ما يعيشه بالسلامة.. أرخى جفنيه في حركة ظنها بمثابة رضا عن تلك الكلمات الودود التي هدّأت من تصارع الهواجس داخله.. لكن سرعان ما أصابته رعشة من الرجل الذي نهض واقفاً وسار في الحجرة بخطوات بطيئة لها صدى رهيب، وهو يلمس بأطراف أصابعه الأشياء، ثم توقف عند رأسه وقبض بيديه على المسند الحديدي للنقالة وسأله بصوت جاد وصارم يخلو من الشفقة:

– هل يمكنك أن تخبرنا باسمك وسنك ومهنتك؟

لم يستطع أن يهرب بعينيه اللتين تجمدتا في مكانهما.

أحس أن ممحاة كبيرة مرت على رأسه ولم تترك شيئاً بالذاكرة.. لم يتوارد

على رأسه أي اسم.. (إن طرق أحدهم رأسه لابد أن يكون اسمه).

ربما باغته السؤال!

لم يخطر برأسه أن يسأله أحد.. لم يخطر برأسه أي شيء.

كان يشعر بأنه مثل ورقة بيضاء تحركها الريح كيف شاءت.

حاول أن يعثر على طريق يقوده إلى باب الذاكرة والوصول إلى أعماقها الدفينة لكن مقلتيه كانتا تخبران بالفجيعة والعجز.

بعد جهد هرب بعينيه من حصار نظرات الرجل التي صنعت ثقوباً في جسده.

على الحائط شاهد الرجل والنقالة وكائناً شاحباً يرقد فوقها وتفاصيل الحجرة فوق شاشة عرض كبيرة.

اشتم رائحة فم كريه حين مال الرجل واقترب من أذنه وهمس فيها:

- هل نسيت اسمك؟

هل يمكنه أن يصدق أنك نسيت اسمك أم سيظن ذلك نوعاً من التخابث للهروب من جرم ما..

كيف لي أن أعرف؟

تلك الذاكرة الفارغة لا تعطي عونا لأحد.. ماذا لو ألصق أحدهم فرية بي.. كيف يمكنني أن أعرف؟.

لن أملك حتى دفع التهمة عن نفسي.

حتى إن كنت نسيت كل شيء، هل يمكن أن أنسى اسمي.

بدا كأن حواراً ممتداً يدور داخله جعله لم ينتبه للرجل الذي عاد إلى مقعده خلف المكتب الخشبي يمسك بقلمه بين إصبعيه ويضعه بين حين وآخر بين شفتيه كعاشق نهم يشتاق إلى سحب أنفاس لفافة تبغ.

- هذا الصمت يعني اعتراضاً على السؤال؟

جاهد أن تخرج كلماته بسرعة ليدفع عن نفسه الاتهام.. خرجت كلمات صغيرة ممزقة تتدافع:

- إنني.. لا.. أتذكر.. شيئاً

لم يكن (من يظنه المحقق) يدون شيئاً.. بدا أن آخرين يقومون بهذا العمل، حتى وإن لم يكن يراهم.

تولد لديه هذا الإحساس من الكاميرات التي تنتشر في كل مكان بكثافة.

ظل المحقق ينتقل من خلف مكتبه إلى النقالة مرات ومرات.

يطأ الأرض الكئيبة بقدميه ويتوقف فجأة، يسأل سؤالاً عابراً ويدور في أنحاء الغرفة، يثرثر مثل طيور عصبية ثم يعود ليتحدث ببطء وبرود.

بينما الراقد فوق النقالة يجاهد مثل حيوان مخنوق لكي يلتقط الهواء وعيناه تتراكضان في أنحاء الغرفة خلف المحقق والأسئلة التي تجمح.

من أين أتى؟.. ما طبيعة الحادث الذي وقع؟.. لِمَ يوجد هناك؟.. هل يعرف شيئاً عن منقِّذيه؟.. ماذا يعمل؟.. متزوج أم أعزب؟.. هل يعرف

شيئاً عن السياسة؟.. الأحزاب؟.. التنظيمات السرية؟.. منظمات المجتمع المدني؟.. المنظمات الدولية؟.. الأمم المتحدة؟.. هل غادر البلاد من قبل للعمل أم للسياحة؟.. هل اشتكى أي أعراض مرضية من قبل؟.. هل يرتبط بعلاقات مع الجنس الآخر؟.. هل تحب الرياضة؟.. اعتدت ممارسة رياضة ما؟.. أي هواية أخرى؟.. القراءة؟.. كتابة الخواطر؟.. هل تحب الفنون؟.. هل تعرف شيئا عن شبكة المعلومات الدولية؟.. ما المؤهلات التي حصلت عليها؟.. ما ألوانك المفضلة......؟؟؟؟؟ إلخ

سيل من الأسئلة التي لا تنتهي والتي لم يجد لها إجابة.

ظل يردد بوهن أنه لا يتذكر شيئاً!. لمْ يمل المحقق تكرار الأسئلة.

ربما مرت ساعات طويلة حتى بدا المحقق مجهدا وتحرر من ربطة عنقه قليلاً.

جلس خلف مكتبه مجددا وأمسك قلمه بين إصبعيه وظل ينقر به فوق سطح المكتب الخشبي، بعدها تنهد بعمق وقال:

- **حمداً لله على السلامة**

أعتقد أننا انتهينا يا سيد عايد

مرة أخرى يعود إلى تلك الجدران الباردة.

حمله العاملان ووضعاه فوق السرير وتركاه وحيدا.. تطن في أذنيه كلمات

المحقق التي حفرت بحيرة متلاطمة الأمواج من الحيرة. ربما وقع حادث مروع أتى به إلى المستشفى ومسح عن ذاكرته كل التفاصيل والهوامش، لكن من استطاع أن يزرع في نفسه غابات الخوف وجعلها تنمو وتترعرع في حياته التي دبت فيه فوق هذا السرير وأصبحت تاريخه الوحيد بعد أن تساقطت ذاكرته وضاعت في مكان مجهول؟.

ربما كانت ملقاة هناك على البلاط الباهت إلى جوار بقع الدم المتخثر، أو في ممر من ممرات المستشفى، أو نسيها في حجرة الجراحة.. وربما التصقت بقفاز الطبيب وألقى بهما معاً إلى سلة المهملات. لن يستطيع أن يضع افتراضات أخرى.ماذا يمكنه أن يتوقع خارج هذا المبنى غير فراغ أسود كبير ألقى به إلى هذا المصير البائس.. فراغ سلبه كل شيء وأسلمه إلى الخوف والعجز.كل ما استطاع استرداده اسم بلا ملامح.. رقد منتصبا فوق ناقلة الموتى يردد في ذعر أنه لا يتذكر شيئا.

لا يعرف شيئاً عن هذا الجسد المريض وتلك الروح الشاحبة حتى ألقى به المحقق في وجهه.. تلقفه دون عناق.. ظل متوجساً جزعاً كعادة الناس حين يلتقون غريباً لأول مرة.. لم يجد ألفة بينهما، لكنه كان مجبراً على اصطحابه.. على الأقل سيكون ونيساً في هذا الفراغ الأسود.. وضعه على طرف لسانه ونطق حروفه ببطء.. ع ا ي د .. عايد.. عايد.. عايد.

ظل يردد الاسم مرات ومرات كي لا يضيع هناك في الذاكرة المظلمة حتى أصابه الوهن.

٢

يعرف أنه يخاف من كل شيء.

الماضي المعتم.

الحاضر المحاصر بعلامات الاستفهام ووجوه المرضين والعاملين بالمستشفى والجدران المصمتة ووحوش الخوف.

أما المستقبل فلم يخطر بباله!

كان مغرقاً في اللحظة الراهنة بأسئلتها المستعصية على الفهم، لكن ذلك لم يمنع وميض الأمل من أن يتسرب إلى نفسه حين بدا أن جسده يتماثل شيئاً فشيئاً للشفاء، وبدأ يخطو بقدميه خطوات قليلة فوق بلاط الحجرة.

يتساند على الجدران ويرفع قَدماً ويضع الأخرى.

حيناً بعد حين زادت الخطوات وبدا أنه يستطيع التخلص من كيس التبول البلاستيكي المربوط بساقه ويصل البول إليه من خلال أنبوب ضيق؛ ليتبول في السطل المعدني الموجود إلى جانب أحد جدران الحجرة.

شعر بارتياح لسماع صوت تدفق البول داخل السطل المعدني والقعقعة التي أحدثها ارتطام البول به.

ربما لأنه صوت لم يتعود سماعه في هذه الحجرة. أو لشعوره أن باستطاعته

القيام بشيء بصورته الطبيعية قد يعيد إليه شيئاً من إنسانيته المفقودة...
حتى وإن كان مجرد تبول في سطل معدني.

لم تشغله تلك الرائحة النفاذة التي وجد فيها فرصة لاختبار حاسة الشم وتأكيد وجودها بعد أن اعتاد استنشاق الديتول ورائحة الدواء والقفازات المعقمة.

لم يكن يعلم أن تلك الرائحة ستحقق له متعة أكبر.. حين فتحت العاملة باب الحجرة وسدت فتحتي أنفها بإصبعيها وأخرجت زفيرا غاضبا ونظرت إليه وإلى السطل الممتلئ لآخره ثم أمرته بأن يحمل السطل ويسير خلفها في الممر الضيق حتى باب المراحيض وسكبه هناك وعاد سعيدا رغم توبيخات العاملة المتأففة، فقد استطاع لتوه أن يكسر حاجز جدران الحجرة ويستنشق هواء الممر حتى وإن كان له المذاق نفسه.

مع الوقت بدأت نفسه تهفو إلى كمية أكبر من الطعام الذي يأتيه الآن مرتين بعد أن قضى وقتا يتغذى على أنبوب يمتد من زجاجة المحلول إلى الوريد وبدا أن التعود لم يصنع ألفة بينه والمكان.

حنت عيناه إلى شيء آخر بخلاف الجدران.. إلى نور آخر لا يشبه وهج المصابيح الخافتة.

كان يضيء نور الغرفة ويغلقه ولا يجد فرقاً بين النور والظلام.
تفاصيل الحجرة تحتشد داخل ذاكرة فارغة..يشعر بأن قدرته على الإبصار

تضعف.. يتطلع إلى الستائر التي تحجب زجاج النوافذ المعتم.

يكبح عشرات المشاعر المتضاربة التي تعصف داخله ويتساءل عما يمكن أن يكون هناك خلف تلك النوافذ الميتة؟؟؟

لا يدري كم مر عليه من وقت في تلك الحجرة؟.

الساعات كلها تتشابه.

لا فرق بين ضحى وعشيه.. بين ليل أو نهار.

لا توجد علامة يسترشد بها ليعرف أن يوما مر وآخر يتولد هناك في رحم السماء!.

كان ضرباً من الجنون أن يحسب الأيام بحسابات النوم والإفاقة، فهي أبعد ما تكون عن الصحة.

ربما كانت إغفاءة واحدة بآلاف الأيام والليالي..تأكد من ذلك حين أفاق مرة ووجد صحن الطعام الذي تقدمه الممرضات قد تعفن وغطته طبقات هشة من البكتيريا الرمادية.

لم يكن متأكداً.

لا توجد أمامه حقيقة واحدة يستطيع الإمساك بها.

ربما كان كل ما يعتقده ويراه مجرد وهم.. تماماً كتلك النوافذ التي تحجبها الستائر!.

رغم أن شقاءه في النسيان، ذاكرته الملعونة تحفظ عن ظهر قلب ما حدث.

لا يعرف كيف خامره هذا الشعور.. أحس بأن شيئاً ينسحب من داخله ويسحب الحياة معه، زادت نبضات قلبه وبدا كمجنون يقطع الحجرة ذهاباً وإياباً مرات ومرات.. يذهب ليضيء نور الغرفة ثم يعود ويغلقه.. يضيء ويظلم.. يضيء ويظلم.

مرة.. مرتين.. ألفاً.

لكنه في النهاية وجد نفسه مدفوعا ناحية الستائر.. يزيحها ويتأمل تلك النوافذ الصامتة.. ظل يحدث نفسه أن نوراً آخر لابد أن يكون هناك خلفها.

نور سيهدهد تلك النبضات المجنونة ويسحب الشعور بالانهيار والتلاشي.

مد يديه ليفتح تلك النوافذ لكنها استعصت.

ظل يحاول ويحاول حتى آخر قطرة يأس.

حينها فقد قدرة السيطرة على جسده.. ربما لأن شيئاً ما انسحب من داخله وحرر هذا الجسد من خوفه ومن وعيه ولم يبق منه إلا عين ترصد وتتذكر! !

انهال على زجاج النوافذ بكفيه.. برأسه.. بساعديه.. بالسطل المعدني.. بكل ما استطاعت يداه أن تنالاه. هشم زجاج النوافذ الذي تناثر على أرضية الحجرة مع خيوط الأحمر القاني التي انسلت من جسده، ثم وقف صامتا للحظات أمام النوافذ المهشمة،

ينز الدم والعرق والأسى.

نظر إلى الجدار الرابض خلف النوافذ وصرخ صرخة مدوية، ظل صداها يتخبط بين الجدارن المصمتة مثل كرة مطاطية حتى سقط مغشيا عليه فوق قطع الزجاج المهشم والدم المتخثر والظلام الدامس.

حين أفاق بدا كأن شيئا لم يحدث.

عادت النوافذ بزجاجها القاتم تغطيها الستائر.. أرضية البلاط باتت أكثر لمعانا وتخلت عن بقعها القديمة ولم يبق شاهدا على ما حدث إلا الجروح والضمادات التي تغطي جسده.

الأوقات التالية لاحظ أن المرضين لم يعودوا يبادلونه الكلام.

باب حجرته لم يعد يفتح حتى في الأوقات التي تمتلئ فيها مثانته.

أصبح مضطرا للتبول بأرضية البلاط بعد أن سحبوا السطل المعدني من الغرفة.

حتى زر الكهرباء فقد السيطرة عليه وأصبح التحكم في إضاءة الحجرة آليا أو كما ظن.. لأن المصباح الكهربائي ظل مضاء طيلة الوقت.

لم يكن عايد يعرف الجرم الذي ألقى به في هذا المستشفى.. لم يعد يهتم بذلك بعد أن هدّه الحزن والانتظار ونوبات الهياج التي أصبحت تأتيه بين الحين والحين.

أصبح يكره عايد الذي لا يعرفه وعايد الذي يعرفه، كلاهما يشتركان في

توريطه بهذا المستنقع.

لا يمكن أن يكون هذا مستشفى للعلاج؟ إنه مستشفى لتصنيع الجنون.

ظل يصرخ ويتألم:

أين الطبيب.. الطبيب.. الطبيب؟

لكن الجدران بقيت على صمتها الأزلي وإن بدا لها أنها نوبة جديدة من الهياج ستستمر للحظات وتنتهي ليعاود الصمت هدوءه المقيت.

منذ فتره فقد شهية المقاومة.

لم يكن يصدق أن يستمر الوضع على ما هو عليه.. لا بد أن تغيرا ما سيحدث.. حقيقة ما ستدق رأسه وتهشم تلك الحجب المنيعة وتكشف ما وراءها.. لكن مع مرور أوقات طويلة لم يتبدل شيء إلا عايد نفسه.

استعصى النوم عليه وذبل جسده وهدته الحيرة فاستسلم لحصار الجدران.. حتى نوبات الهياج التي كانت تواتيه لم يعد الجسد قادرا عليها، أصبح يكفيه الدوران الذي يواتيه كثيراً في الآونة الأخيرة.

لم يكن معتاداً على سماع تلك الدقات بباب الحجرة ولم يهتم بها.. لكن حين انفرج الباب وولجت منه امرأة شم رائحة مختلفة لم يعتَدها.

رائحة نفضت بقايا الوهن عن أهداب عينيه وأعطت لجسده صحوة ما جعلته قادرا على تأمل ابتسامه فوق وجنتيها.

اعتدل في سريره وأسند ظهره إلى الوسادة.

لم يكن وجهها مألوفا ولا يظن أنها من العاملات أو المرضات اللاتي اعتدن تقديم الدواء والطعام والصمت إليه.

مدت كفها بأقراص البرشام فبدا واضحا طلاء الأظافر المهذبة بعناية.

تلقفها وألقى بها إلى فمه دفعة واحدة ومال إلى كوب الماء المنتصب فوق الكومدينو وتناول رشفة دون أن تسقط عيناه عن شفتيها المتلثتين.

– مبروك يا عايد..

الطبيب قرر أن تغادر هذه الحجرة

اعتقد أنه أخطأ السمع.

لكنه موقن أنها تلفظت بكلمات وقطعت حياة الصمت التي يحياها.

هل بإمكان الأمل أن يتسرب إلى نفسه ويزيح ولو كومة من أكوام اليأس المتراكم؟!.

لا شيء في هذا المستشفى يخضع للتوقع، فكما وجد نفسه بين هذه الجدران دون سبب يتفهمه ربما غادرها في لحظة.

ربما تريد الحياة عقد مصالحة معه من جانب واحد، كما دخلت معه في عراك دون أن يرتكب جريمة ما.

لو سألته سيوافق حتماً.

سينسى كل العذابات التي تذوقها بين هذه الجدران ويعقد تلك الهدنة.

أمام صمته تقدمت خطوات وجلست بجانبه عند حافة السرير.

أصبح العطر فواحا وأهاج الأغشية التي تراكمت فوق صدره، سعل مرات خفيفة وزحف بجسده الوهن بعيدا بعد أن أصابته لسعة حين قاربت بجسدها على ملامسة ساقه المغطاة بالملاءة..

رغم الحرارة التي سرت في جسده، انسحب الدم من عروقه وعاد إلى الوجه شحوبه الشمعي.

مالت برأسها ناحيته حتى انسدل شعرها على وجهه وأصابه بالخدر والحمى، قالت برهف:

ـ ألا تشتاق لمغادرة الحجرة والحياة مع الناس؟

تنهد تنهيدة طويلة وعميقة فسحب هواء الحجرة إلى صدره وأخرجه ببطء.

مط شفتيه وقال بصوت مهموس:

ـ ال.. نااااس

لا يمكن اعتبار الدمى التي تأتي لتقديم الدواء والطعام ويعاودون زيارته–على فترات– من البشر..

حتى الدمى يمكن التواصل معها، لا تملك ذاك الصمت القاسي الذي يملكه من ينتمون إلى بنى الإنسان.. لابد أنها تملك مشاعر ما.. حب.. كراهية.. تعاطف.. ازدراء.. أي شيء.

أما هؤلاء فلا تمتلئ عيونهم إلا بالخواء.

رنا إلى الجالسة على سريره.. لحظ اختلافاً ما.

منذ أول لحظة ولجت فيها باب الحجرة راوده هذا الشعور– هل بإمكانه أن يحلم – هل استطاع أحد من بني البشر الحقيقيين الوصول إليه؟

ربما تكون الجالسة إلى جواره الآن لا تنتمي إليهم، تلك الحرارة التي استشعرها حين لامست بجسدها ساقيه — حرارة إنسانية، تلك العيون، بها ذلك الوهج الإنساني المشع.

هل بإمكانه أن يحلم..

هل قالت حقا إنه سيغادر تلك الجدران القميئة؟

يخشى أن يرتد الحلم كابوسا.

لم يعد يمتلك القدرة على مشاهدة أمل جديد يقتل.

رغما عنه رأى الأمل يخمشه بأظافره ويداعب الأسى الرابض بالقلب المريض.

مدت كفها إليه وساعدته على الوقوف.

كأن أقدامه لا تريد أن تصدق.

ظلت ترتعش، يصطك بعضها ببعض حتى وصلت إلى باب الحجرة.

عيناه هربتا بعيدا حتى لا تلقي نظرة على الحجرة التي احتلته طيلة هذا العمر وتدحرجت نظراته في الممر الطويل بحثا عن تفاصيل، بعيداً عن أكياس الرمل التي تكبل قدميه.

****

الممر سلمه إلى المصعد.

المصعد هبط إلى ممر آخر طويل.

كان الضوء رماديا وضعيفا.

الجدران على الجانبين عالية وقابضة، بينما أطرافه مفعمة بالصقيع.

في الفراغ الممتد يتردد وقع خطوات امرأة على الأرضية الباردة.. رائحة عطرها النسوي مثل غيمة تتبعانهما.. منحته ونسا خفف من وطأة الرهبة عليه.. تمنى لو عاودت المرأة وضع كفها في كفه من جديد.. تمنى لو ضمته إلى صدرها مثل وليد يخرج إلى الحياة مذعورا.. يحتاج إلى دفء حضن ليهبه الطمأنينة والسكن.

منذ غادرا الحجرة لم تكف عن الثرثرة.

قالت إن بإمكانه مناداتها بسلوى.. كل من تعرفهم ينادونها بهذا الاسم.. لا تتذكر أول من ناداها به ولماذا.. لا تشغل رأسها بالأمر.. لم يختر أحد منا اسمه فلِم نشغل أنفسنا بالأسماء.. لا أعتقد أن شيئا سيتغير لو كان لي اسم آخر.. سيحبني كثيرون في كل الأحوال ويعتبرونني صديقة.. يفضون إليها بمكنونات أنفسهم دون خوف.

لم أعتد منذ عملي بالمستشفى أن تكون علاقتي بالآخرين يحكمها الواجب والعمل والقوانين الجامدة.. كثيرون مغرقون في أعمالهم حتى ضاعت

أرواحهم وسقطت دون أن يشعروا.. يظنون أن الأدوية والمسكنات كفيلة بمحاربة المرض!.

المرض أكبر من أي دواء يصفه الأطباء وهم جالسون بغرفهم المكيفة.. وحدها المشاعر تستطيع ملامسة الجرح وتطبيبه.. تستطيع مساعدة الأجساد المنهكة على الاستمرار.

كان يتسمع لها بأذن ويترقب بأخرى.

لم تعن له كلماتها شيئا.. كل ما يشغله النهاية التي سيفضي إليها طريقهما.

(توقع النهايات يبدو عسيرا مع غموض البدايات).

المر سلمه إلى ممر إلى آخر.

صعدا إلى مصعد جديد.

انفرج باب المصعد على ممر آخر..

المرات الرمادية لا تنتهي.

لاحظ توقف المرأة عن الثرثرة.. استهواه السكون الذي عم الماشي فانصرف إلى تأمل اللوحات التي علقت بالأبواب المغلقة.. الغرف ١٠١..١٠٣..١٠٥..١٠٧.

تتدحرج أمامه الأبواب والأرقام واحدا تلو الآخر.

فتر اهتمامه مع تتابع الأرقام والغرف والممرات والصمت.. عند أحد

الأبواب توقفت.

دفعت الباب فانفرج.

رأى عيونا شاحبة تحتشد فوق الأسرَّة وتحدق في ملامحه.

أشارت إلى السرير الخالي وقالت:

– **ادخلْ.**

٣

ساعة انغلق الباب خلفه ظل للحظات ساكنا مثل شجرة خريفية بلا أوراق.

طوى صفحة الأيام والليالي الماضية التي قضاها وحيدا كالصبار وانتظر.

ظل يستعطف السماء أن يسقط المطر وتورق شجرته الخريفية.

تأمل الحجرة بحثاً عن تفاصيل.

أسرّة ثلاثة بملاءات بيضاء.. ربما مل اللون الأبيض الذي يطارده في كل مكان.. لم يعد له نفس الصفاء.

طالع وجه يحيى فوق أحد الأسرة، جالسا في وضع القرفصاء..

شعره لوّنه البياض..يرتدى قميصا مقلما وبنطالا من الجينز الكالح، بهت لونه حتى أصبح مثل صباح شتوي ضبابي.

محمود يبدو أصغر عمرا.

يرقد على السرير الآخر مستندا بجذعه على وسادة من القطن في جلباب رمادي بلا أكمام.. يكشف عن عظام جسده الهزيل.

يتقاسمان الشحوب والصمت والتطلع بعينين جاحظتين إلى القادم ليشاركهما نفس المصير.. في انتظار استشفاء، قد يجيء، أو لا يجيء.

إلى جوار كل سرير كومدينو صغير.

إلى أحد الجدران تستند خزانة ملابس واحدة.. بالجدار المقابل لمح شاشة عرض سينمائي مستطيلة وصغيرة، تشبه تلك التي رآها هناك.

تدافع إلى أذنيه صوت (المحقق)، ظل يحاول أبعاده عن رأسه، أطبق بكفيه على أذنيه وهرب بنظراته بعيدا.

على امتداد جانب واحد من جدران العنبر نوافذ زجاجية بدا الضوء منها أكثر سطوعا.. لم يتمالك نفسه، هرع إلى النوافذ، يطل من خلف زجاجها على الطريق.

الإسفلت الرمادي بلونه الثقيل وخطوطه البيضاء الناصعة.. ظل يسير مع الخطوط البيضاء إلى أخر ما استطاعت عيناه أن تريا.

لم يكن هناك شمس.. لم ير لها شعاعات..هل حجبتها الغيوم والسحابات.. أم حجبتها البنايات الشاهقة المقبضة وأبقت له الظلال؟.

لم تصل عيناه إلى السماء.

شعر ببغض أمام المبنى المقابل الذي حجب عنه كل شيء، راوده خاطر أن يكون دخل هذا المبنى من قبل.

لن يكون إلا أكثر سوءا إن كان يُخبئ بين جدرانه أيامه المغيبة.

انصرف ببصره بعيدا.

ارتدت خطواته تتلمس طريقها إلى السرير الوحيد الخالي من صاحبه وهوى بجسده الذي شعر به ثقيلا إلى السرير تاركا لأعضائه حرية الاسترخاء بعد عناء طويل.

تداعت أمام عينيه الصور، أحيانا بطيئة تجتر آلامها ووخزاتها ومرات متلاهثة.. منذ أول صورة– لحظة إفاقته الأولى– وحتى المشهد الأخير برفقة سلوى.

ارتعشت شفتاه.

أحس بهما باردتين متشققتين غير قادر على ضمهما.. وفي داخله دوت صرخات مجلجلة.. صرخات مفعمة بالأسى والعذاب، لم يدر إن كانت من وقع ذكرى أم توجس من آت.

اعتدل يحيى في جلسته.

هبط بساقيه النحيلتين وزحف بخطوات بطيئة ناحية عايد، جلس عند حافة السرير.. كانت عيناه تتطلعان إلى ناحية النوافذ الزجاجية، قال بصوت بطيء:

ـ الق بكل ما مضى خلف ظهرك

....

أهم شيء هو أنك معنا هنا.

أما محمود فاعتدل في رقدته.

نام على ظهره متأملا السقف المقشور الذي لم يكن بعيدا.

عندما استيقظ داخله انطباع بأنه نائم منذ دهر.. بأن زمنا طويلا مر.. أطول مما يخطر على بال.. زمن لا يعرفه إلا من عاش خلف هذه الجدران وبين عنابرها.

كل لحظة فيه تساوى عمرا كاملا خارج تلك البنايات المقبضة، ولا تعدو لسكانها أكثر من تكرار لعقارب ساعة أبدية يلفها الجمود.

انتهاء لحظة وبداية أخرى لا تعدو أن تكون فيها إلا كمثل قطرة ماء حركتها ريح في بحر ميت لا توجد له منابع ولا ينتهي إلى مصب.

قطرة حركتها ريح وأعادتها ريح إلى النقطة المتجمدة ذاتها.

لحظة يتساوى فيها الضوء بالظلام

الشروق بالغروب

الحياة بالموت

أحيانا يشعر أن مفردة الحياة كلمة لم تخلق لقاموس تلك البنايات، لا يعرفها المرضى أو الممرضون.

لا يوجد فارق بين أحواض الفورمالين التي تسبح فيها الجثث بالمشرحة والجدران التي تتدافع فيها الأجساد بين العنابر.

كلتاهما لها الرائحة النفاذة نفسها.. الصمت الأخرس نفسه.. الشحوب نفسه الذي يسكن الملامح ويلف الوجوه.

كان الوحيد الذي استرعى انتباهه ما أذاعته مكبرات الصوت!

حين خرجا من العنبر، لمح محمود وهو يسبقهما إلى الممر.

تطلع إلى "التَّمَرْجِيّات" وهن يحتللن الممرات بالجرادل والمناشف، يدفعن "التُّرُوْلِّيات" محملة بأكياس سوداء كبيرة تتجمع فيها القساطر وأكياس البول والشاش المغمور بالمطهرات والدماء المتخثرة.

الوجوه الشاحبة تغادر العنابر في طريقها إلى الكافتيريا كعادة أيام الجمع.

رمقه يحيى بنصف نظرة وهمس كأنه لا يخاطب أحدا:

- رائحة الفورمالين الملعون!

عايد عبر ضلفتين ثقيلتين لباب معلق إلى داخل الكافتيريا.. سار بخطوات بطيئة واختار أحد المقاعد المرتفعة بالقرب من النافذة وجلس، اتكأ بمرفقيه على الطاولة المعدنية وتطلع من وراء الزجاج إلى الأسفلت الرمادي البعيد.

منذ أصبح من نزلاء العنابر بدا لمن حوله لا مباليا بشيء.

لا ينشغل بمكبرات الصوت التي تحدد النظام اليومي للمرضى.. ساعات مغادرة العنابر. السماح بدخول المراحيض وضوابط استخدام الحمامات.. مواعيد توزيع الطعام والدواء.. مواعيد تشغيل شاشات العرض. تنبيهات إغلاق النوافذ والأبواب.. مواعيد توجه المرضى إلى المغسلة لتنظيف الملابس والأغطية وكيها...الخ

قائمة طويلة من الأوامر والنواهي لا نهاية لها تدوي بها مكبرات الصوت كل يوم، ثم تعود وتفرض خروقات لها أو تضيف التزامات عليها دون ضابط.

هل سيتغير العالم إن تغيرت عادات الجميع ولم يغادروا عنابرهم إلى الكافيتريات؟

اعتاد ألا يهتم بشيء مما يحدث حوله ولا ينشغل بأحد من أطقم الشغالة، بداية من عمال وعاملات النظافة والمصاعد ونهاية بالمرضين والمرضات أو العاملين بأمن المستشفى.

لم يلحظ عليه أحد أنه بادل أحدهم ولو حديثاً عابراً.

كان ما يربطه بهم طاعة عمياء لا تفرق بين كبير أو صغير، طاعة مصحوبة بصمت مقهور، حتى إن حاول أحدهم إغداق بعض الود عليه، لم يكن ذلك كافيا ليستحلب شهية الكلام عنده.

بعضهم برر حالته بحال كثير من المستجدين الذين يدخلون إلى العنابر لأول مرة أو يعودون إليها بعد غياب، وعادة ما ينصهرون مع النزلاء والعاملين وعاداتهم الرتيبة بمرور الأيام.

الأيام وحدها كفيلة بمنحنا القدرة على التكيف مع أقسى الأشياء.. كفيلة بإزاحة ذلك الستار الذي يحجب عنا ملامسة الأشياء ويجعل منها كائنات شبحية مرعبة لا قدرة لنا على مصاحبتها والتعايش معها.

مع إزالة الستار عنها نألف ملامحها الشائهة وتسقط عنها أسمالها الباردة..تبدو قريبة الشبه من جراحنا.

تبدو قريبة الشبه من كائناتنا التي ترتعد داخل نفوسنا وتخاف من كل شيء.. المرض.. الألم.. الأسى.. الموت.

مع مرور أشهر تلو أخرى لم يستطع أحد كبح جماح صمت عايد وبات واضحا تجاهله لكل ما حوله.

فلا تربطه علاقة بالأشخاص ولا بالأشياء.

لم يعد أحد قادرا على تحديد ما إذا كان يشعر بوخز الإبر وألم القساطر والمناظير ومرارة الأدوية مثل باقي المرضى أم أن جسده أصبح يستعذب الألم ويحن إليه.

الأمسيات القليلة التي يسمح بقضائها بالكافتيريا ويتجمع فيها النزلاء من كافة أقسام الباطنة والمتوطِّنة والجراحة والمسالك والنساء، غالبا ما كان يعارض صحبة يحيى ومحمود إليها.

حين يرضخ تحت إلحاحهما، ينساق وراءهما دون رغبة حقيقية في مخالطة الآخرين.

ينتحي جانبا ويحملق من خلال خصاص النوافذ إلى العتمة اللامتناهية.

يبدو وكأن خوفاً ما يرج كيانه.

خوف لا سبيل إلى مواجهته إلا بهذا الهدوء والصمت.

وحدها ريم كان بمقدورها أن تقرأ ما في عينيه من أسى، تقرأ السؤال الرابض هناك دون إجابة.

لا توجد إجابات بين جدراننا العالية.

لا توجد أسئلة إلا داخل النفوس المختبئة داخل كهوفها.

إن ألح سؤال وسقط من صاحبه لن يجد إلا إجابة واحدة..هل تعرفها يا عايد؟.

نعم..

إنها الغرفة.

إنها الإجابة الوحيدة التي يجيدونها..

إذا أحببت، إذا حلمت، إذا عرفت، إذا سألت، إذا تكلمت، إذا كرهت.

لن يكون لك إلا مصير واحد.. كأنه قدر على كل النزلاء أن يلقوه.

أما نزلاء العنابر فكانوا يفكرون به على أنه لا يحتاج إلى شيء من أحد، كأنه خلف كل شيء وراءه واستراح.

لكنهم أخيرا لاحظوا شيئا جديدا.

كان الوحيد بينهم الذي استرعى انتباهه ما أذاعته مكبرات الصوت.

شاهدوا أملا جديدا يرتسم فوق ملامحه، لاحظوا أن شيئا ما حرك الساكن داخله وأوقد تلك الومضة بوجهه.

تلك الكلمات التي رددتها مكبرات الصوت عن السماح بدخول الصحف إلى المستشفى.

دون أن ينظر إلى أحد، سأل بصوت بطيء جداً وخفيض جداً:

ـ ومتى يمكننا أن نحصل على الصحف؟!

لكن حتى إن سمعه أحد فلم يكن يملك الإجابة.

٤

في تلك الأيام داهمته رغبه لحوح في أن يرصد المستشفى من طرفه الأدنى إلى طرفه الأقصى.. أن يرتق الذاكرة بصور الأشياء والأشخاص.. يفض بكارتها الزائفة ليعرف نفسه.

يعرف ما الذي فقده بالأمس وما الذي سوف يجنيه بعد أن أصبح هذا الشخص الجديد.. فما هو الإنسان إن لم يكن تفاصيل صغيرة محشوة بالذاكرة.

يحيى وقد ألف صمته الذي طال، قال إن الجدران حولهم متعددة.. لا أول لها ولا آخر.. كل جدار خلفه جدارن أشد صلابة وقسوة.. جدران تكمن قوتها في إتقانها التخفي.. في براعتها أن تظهر فجأة دون مقدمات، وقدرتها أن تحبس أجسادنا وأرواحنا.

فلا يكفي أن نهدم جدارا أو نصنع به كوة كافية لتهريب أجسادنا لنجد أنفسنا أحرارا طليقين.. علينا أولا أن نبحث عن كوة تستطيع أرواحنا أن تنفذ منها وتهرب بعيدا.

بدا وكأنه يستجمع قدرة الهروب من غمامات الأفكار حين سأله:

ـ ألم تفكر أن تذهب إلى سلوى؟

لا يعرف حقيقة الشعور الذي تسلل إلى قلبه وحواسه.. لكن شيئا ما نبض

داخله.. (حنين إلى شيء مجهول).

سلوى الكف التي امتدت لتنقذه من قاعه السحيق.. الأنثى الأولى.. هل يعرفها يحيى.. هل يذهب إليها؟!

لم يرها عايد منذ أحضرته إلى العنبر وتركته عند الباب.

لم يشاهدها بالممرات أو بالمغسلة أو بالكافتيريا أو في الأمسيات القليلة التي تحتشد بالمرضى والعاملين بالمستشفى.

لابد أن يحيى يعرف أين تسكن.. في أي مكان يجدها.. هل يسأل عنها.. ماذا عساها ستظن.. ماذا عساها ستقدم له؟!

ليست المرة الأولى التي تراود سلوى فيها أفكاره.. المرة الأولى كانت في الجمعة الحبيسة.

استيقظ النزلاء مبكرا كعادة الجمع وحاولوا فتح أبواب عنابرهم للذهاب إلى الكافتيريا لكنها لم تفتح.

الإغلاق صار آليا لكل الأبواب .

لم يعن الأمر شيئا عند عايد، عاد إلى سريره وجلس عند الحافة يرمق النوافذ المغلقة.

يحيى كان متوترا.. أيام الجمع تعنى لديه الكثير.. لا يكف عن الحركة بين النزلاء. .تشعر به شخصا آخر.. كأنه يعيش حياة حقيقية .. لا يترك نزيلا إلا وتناوب إحساسه مع إحساسه.. يطمئن الجميع بكلمة أو حديث

عابر، ثم يرسو على شاطئ النزيلات.

يقول إنه لا يشعر بحياته إلا بينهن.. للنساء قدرة خلاقة على صناعة الحياة في كل الأحوال .. لديهن القدرة على مداعبة الموت حتى ينبض.

أجمل ما فيهن أنهن لا يحملن في رؤوسهن الجميلة تلك الأشياء المعقدة التي تختمر بها عقول الرجال.. دائما ينطلقن من بؤرة الفؤاد.. لذلك تجدهن الأكثر تطرفا في هذا العالم.

القلب يعنى التطرف.

لا يعترف بالمنطقة الوسطى للأشياء.

في أكثر لحظاتهن كذبا يكن صادقات.. تلك الكيميائية الغريبة التي لا نعرفها تعطيهن فرصة مواصلة الحياة في أقسى الظروف ووهبها للآخرين.. لو كان الرجل وحده يسكن هذا الكوكب الشرير لفني الجنس البشرى منذ ملايين السنين.. ليست العبرة بفكرة التناسل.. لكن الرجل أناني بطبعه.. لا يمتلك القدرة على وهب الحياة للآخرين.. لا يفكر إلا بنفسه.

لحظات وبدا كل شيء ساكنا.

كف محمود عن دق الباب وركله وعاد إلى سريره مستسلما.. ما كان يشغله هاجس خطر على رأسه.. إذا استمر هذا الوضع لفترة وامتلأت مثانته..كيف يمكنه أن يذهب إلى المراحيض.. صاح في صاحبيه وكأنهما مسؤولان عما يحدث:

- ماذا لو أردت التبول

هل سترضيان أن أتبول في سريري؟

يحيى غالب توتره.. أغمض عينيه وقال بصوت هامس:

ـ فكر في الأمر على إنه لا شيء يحدث

وسيمر الوقت بسهولة.

بدا أن قطرة بول ساخنة غافلت محمود وسقطت دون أرادته، حينها وجل لحظة وإصابته رعشة خفيفة مع بعض الألم بمثانته.

ومضت شاشة العرض بضوء خافت مع إطفاء أنوار العنابر.

سرى صوت الموسيقى الرتيبة التي تشبه مارشا عسكريا مع الضوء الخافت الذي انبعث من الشاشة التي أضيئت كاملة وظلت تعلو الشاشة اللافتة المعتادة عند بدء التشغيل.

(مرحبا بنزلائنا مع خدمات عروضنا المستمرة)

لم يكن لأحد رغبة في متابعة شيء.

أحيانا تكون تلك الشاشات عقابا من الجحيم.

ماذا عساهم سيذيعون.. مقتطفات من حرب العراق أم مؤتمرا صحفيا لبوش الابن..أم أخبارا جديدة من أفغانستان.. أم فيلما جديدا من أفلام الكرتون التي لا يملون تكرارها.

التفت عايد ناحية محمود وقال:

ـ ربما سيعلنون عن موعد فتح الأبواب.

ضحكات هسترية أصابت يحيى جعلت عايد ينكمش في نفسه ويندم على الكلمات التي تفوه بها.

نهض جالسا القرفصاء موليا وجهه ناحية عايد.. ابتلع بقايا الضحكات المفتعلة بأسى وقال بصوت حاد، بينما يداه تضربان الهواء الراكد:

ـ أنت ساذج

هل تظنهم يفكرون بنا

من نحن ليضعونا في اعتبارهم

...

نحن لا شيء

لا شيء ..هل تفهم

لا فرق بيننا وبين هذه الأسرة التي نرقد فوقها!!

انقبضت ملامح عايد. استعاد الأيام التي قضاها وحيدا بالغرفة وراح ينشج صامتا.

دار يحيى والتفت إلى الناحية الأخرى معطيا ظهره له وردد بعصبية:

ـ أنا لا أحب الغباء

لا أحب الغباء

لم تمر لحظات واستعاد يحيى هدوءه.. قام وربت على ظهر عايد.. توسل

إليه أن يسامحه.. لم يكن يقصد.. لا يعرف ماذا أصابه اليوم.

لم ينبس عايد بحرف.

يحيى تراجع إلى سريره صامتا.. وبدأت الشاشة في عرض أحد الأفلام.

صرفوا عيونهم بعيدا، لكن آذانهم رغما عنها كانت تلتقط تلك الكلمات التي لا يفهمون معناها.. فيلم آخر عن الكاوبوي.. لا يكلفون أنفسهم بوضع ترجمة له.

الدقائق مرت متباطئة.

كل واحد منهم يبحر في متاهاته وحيدا.

حين سمع عايد صوتا نسائيا، فتح عينيه وتأمل الشاشة.

كان البطل يجذب البطلة نحوه ويرفعها إلى أحضانه فوق الجواد.. محمود قطع تأمله للشاشة حين قال:

ـ كان من المفروض أن يقبلها هنا.

لم ينتبه عايد ليحيى حين قال بأسى:

– إنهم يحذفون القبلات من الأفلام

....

أشياء كثيرة يحذفونها....!!

لا يعرف لِم دقت سلوى باب ذاكرته.

لِم استعاد ذلك الخدر الذي أصاب جسده حين جلست إلى جواره ولامست بجسدها ساقيه.

شعر أن دما آخر يسرى في عروقه.. غبة في أن تعانق شفتاه شفتين مكتنزتين كشفتي سلوى.

هل يحيى كان محقا، هل... بإمكان امرأة أن تهبه الحياة وسط هذا الموت؟

قطع محمود حبل أفكاره قال:

– هذا المستشفى أحسن من غيره

على الأقل يمكنك أن تجد شربة ماء قبل أن تموت!

شرد محمود ببصره بعيدا.

أبعد من الأسوار التي لا يعرف طريقها أحد.

قال بصوت قادم من حيوات أخرى.. صوت مغموس بالذكرى.. إنه كان نائما في سريره.. يستشعر دفئا زائفا، لكن طنينا هائلا يدوي في أذنيه.. أصوات تشبه قرقرة حدأة.. أشباح تتساقط من السقف وتحكم قبضتها على رقبته.. صدره كان يعلو ويهبط.. يعلو ويهبط.. ظلت زوجته توقظه.. استشعر أنها قضت وقتا طويلا تنادي عليه وترج جسده.. حين أفاق وجد أمه تقف عند رأسه وتستنجد به:

ـ أبوك يا محمود.

لم يعرف من أين أتاه كل هذا الفزع.

قام يتخبط بين الأشياء والجدران، يفرك عينيه بأصابع مرتجفة، يبحث عن رداء يغطي جسده العاري، يهرع ناحية الباب ويعود ليبحث عن شيء لا يعرفه ولا وجود له، يتراجع، يصطدم بزوجته في الطريق.

يهبط درجات السلم كَهِرٍّ غفا واستيقظ على سقوطه المريع.

ينحني على أبيه.. يقبل جبهته.. يتأمل نظراته الزائغة ووجهه الممصوص كليمونة ذابلة.. صوته العليل وهو يستنجد بوهن:

ـ خذني إلى المستشفى يا محمود.

الخوف وحده هو الإحساس الذي قبض عليه بقوة وقيد أعضاءه بسلاسل من حديد.

ظل يحاول التخلص من سلاسله.

يتخبط بين الجدران والأبواب.

المدينة تغط في سبات عميق، والشوارع وحيدة وخالية.

لا شيء إلا بنايات قاحلة.. غابات من الأسمنت لا تنبض ولا تشعر بأحد.. قناديل الشوارع بعيون حمراء أتعبها السهر.

لم يكن هناك خيار إلا الترجل في الشوارع والحواري بحثا عن سيارة أو ناقلة.. حملهما التاكسي إلى المستشفى.

عند البوابة الحديدية الكبيرة يستوقفهم الأمن.. يطلبون إثباتات الهوية..

يراجعون القوائم مرة.. مرتين.. ثلاثة، وفى كل مرة يمنعونهما من الدخول.

كان مذهولا ومملوءا بالدهشة.. يسأل عن السبب.. (لم يكن لأبى يوما أي نشاطات.. مثله مثل ملايين.. لا يهمهم إلا التقاط الحب للصغار والعودة إلى الحظائر وإغلاق أبوابها جيدا خوفا من الذئاب والثعالب.. إن نجحت في افتراس غنيمة لم يكن يملك أكثر من البكاء، حتى حفرت الدموع شقوقا ولوعة.. لم نر له يوما أنيابا أو مخالب.. لم يؤمن يوما بما يردده الشيخ عبد ربه في أصداء السيرة الذاتية لمحفوظ، حينما سأله متى ينصلح حال البلد، فأجاب: عندما يؤمن أهلها بأن عاقبة الجبن أوخم من عاقبة السلامة.. فلماذا يمنعونه الآن؟!).

الجالس أمام شاشة لا تعرف التعاطف يكتفي بتحريك رأسه إلى الأعلى وإلى الأسفل في هوادة ورتابة:

ـ تعليمات أمنية.

جملة من الممكن مصادفتها في أي مكان إلا المستشفى.. لكنه وجدها بانتظاره!.

يستعطف.. يستجدي.. يستنجد:

ـ لا بد أنه تشابه في الأسماء!!

لا أحد يسمع

لا أحد يفهم

لا أحد يجيب

من مستشفى إلى مستشفى إلى مستشفى.

من وحدة صحية إلى مركز طبي.

لشد ما كان يكره الأبواب التي تُوصد في وجهه كلما طرق أحدها.

عند أطراف مدينة جديدة لاحت أنوار الفجر مثل خيوط ماء تتدلى من السماء.

تفتح أبواب المستشفى لهما.. طبيب الاستقبال يجلس مسترخيا فوق مقعده.. يبادل المرضات حديثا باسما.. المرضات يبادلنه الضحكات بسخاء.

يرقد الأب فوق سرير بالحجرة المجاورة.. الطبيب يشيح بوجهه بعيدا عن محمود ويقول:

ـ اذهبْ وسآتي خلفك.

الأب يسأل باستجداء عن الطبيب.

يطأطأ رأسه إلى الأرض.

في الضوء الرمادي الضعيف أخذ يتابع عينيه تذبلان.. يلصق وجهه بالعمود الحديدي الملاصق للسرير.. بصوت مهموس حائر يقول:

– سيأتي حالا يا أبي.

توجه إليه ثانية.

الطبيب ينهض خلفه بتكاسل، يضع جهاز الضغط على ساعد المـريض.. عيناه مثبتتان على المؤشر.. ينزعه من ساعده.. يلتفت ناحية المرضة الـتي رافقته وأمسكت بجهـاز الـضغط.. يـسألها إن كـان عنـدهم قـرص ايـبلات بالصيدلية.

تحرك رأسها بالإيجاب.

تتدحرج أمامه دون أن تتمهل للحظة، وتعود بقرص يـضعه الأب تحـت لسانه بلهفة.

محمود يتبع الطبيب إلى حجرة الاستقبال.

يلمحه الطبيب، يستدير بوجهه بعيدا إلى طبيب آخر حضر لتوه، تبـادلا معاً حديثا قصيرا بلغة أجنبية.

كان يعرف أن الحـديث يخـصه.. ربمـا كانـا يـسخران منـه أو ينعتانـه بصفات مقززه.. لكنه لم يهتم.. كان ما يهمه حال أبيـه.. القلـق الكريـه لم يغادره منذ أيقظته زوجته:

ـ أرجوك يا دكتور كيف حاله؟

أستلقي الطبيب جاثما على مقعده مريحا ساقيه.. أمسك بمجلة– ترقد إلى جواره– بين يديه، أخذ يتفحصها.. ردد بفتور غامض:

– الضغط مرتفع قليلا.

إلى جواره يقف متأملا ملامح وجهه الشاحب.. عيناه غائمتان بسحابات

كثيفة.. شفتاه ترتعشان.. يتطاير منهما طنين كلمات مهموسة:

– شربة ماء!

يهرع إلى العاملين يسألهم عن كوب ماء.. شربة ماء لأبيه.

ينظرون إليه ببلاهة ويبتسمون.. يذهب إلى الطبيب.. يرنو إلى زجاجة الماء فوق الطاولة.. تمنعه الممرضات.

لا يوجد ماء إلا في صنبور المياه.. يسألهم عن كوب فارغ..عن زجاجة فارغة.. عن بقايا صحن.

لا يوجد.

جملة يسهل على الجميع ترديدها.

من حجرة إلى حجرة إلى حجرة.

لا يوجد ماء إلا في صنبور المياه بالجهة المقابلة.

يسألهم عن كرسي متحرك ليحمله إلى هناك.

ترد أحداهن:

ـ لا تتعب نفسك، احمله إلى هناك ليشرب.

يحمل الأب في حضنه ويسير.. يلهث لهاثا مسموعا بين الطرقات..يسير ويسير حتى يصل إلى صنبور المياه.. ينزل الأب ليقف على قدميه لكنه يهوى على الأرض وقد جحظت عيناه تتأملان السماء القريبة.

يصرخ.. يصرخ بكل ما أوتي من قوة.. يبحث عن وجه مألوف.. عن حنو دافئ.. يتأمل الوجوه التي ألتفت حوله.. يتأمل اليد التي وضعت السماعة على القلب المسجى .. يتأمل الشفتين اللتين قالتا:

ـ البقاء لله.

ولم يملك إلا البكاء والأسى:

ـ هذا المستشفى أحسن من غيره!

انسحب عايد صامتا.

ينتقل من غرفة إلى غرفة.. من عنبر إلى عنبر.

ينتظر ساعات خلف زجاج النوافذ.. يرقب الطرقات والمباني والوجوه.. يرقب وينتظر.

لم يكن يعرف معنى لهذه الرغبة.. لكنها كانت كفيلة بحصد الدقائق والساعات.

مع مرور الأيام راودته رغبة أن ينتقل بين المبنى الذي يقطنه والمباني الأخرى الملحقة بالمستشفى.

يتسلل دون أن يشعر به أحد ويظل يسير بين الممرات.. يتفحص اللوحات الصغيرة التي تعلن عن أسماء الغرف والعنابر ودورات المياه.. أقسام التحاليل والأشعة وبنك الدم.. يتوقف عند الغرف التي لا توجد عليها لوحات.. يفكر فيما عساه يختبأ خلف تلك الأبواب.. لا تواتيه الجرأة

لفتح أحدها.. يواصل السير مكتفيا بتلك اللذة.. يـصعد درجـات الـسلم مـن طابق إلى آخر.. يهبط إلى الطابق الأرضي.. يتعجب أن أحدا لم يستوقفه.

كيف أضاع تلك المتعة طيلة الفترات السابقة.

نظر إلى باب المبنى الزجاجي الذي يفضى إلى الطريق.. مـن هـذا المكـان يبدو الإسفلت أكثر قتامة.. الخطوط البيـضاء لم تكـن بتلـك النـصاعة الـتي يراها من النوافذ.

ارتجف جسده حين سمع وقع خطوات تأتى من بعيد.

لم يتوان للحظة، استدار متراجعا.

لكنها نادت عليه:

ـ عايد

....

ـ عايد

خيم القلق كظل ثقيل انتشر بالمكان.

لن يستطيع تجاهل النداء.

تسمر في مكانه دون أن يستطيع أن يلتفت ناحيـة الـصوت.. ظـل يـوبخ نفسه ويلومها.

كان يكفيه التجول بين العنابر والممرات.. لم يكن عليه أن يطمـع فيمـا هـو أكثر.

كانت تسير ناحيته.

يسمع وشوشات خطواتها التي لم تلامس الأرض .. تقترب أقدام ناعمة تشبه خطوات قطة.

القشعريرة تسري بجسده.. ريح صغيرة تدغدغ أحاسيسه.

اقتربت منه بحذر ولهفة.. مسحت براحة يدها فوق شعره.. تلك اللمسة التي خدرت جسده كله.

دار بوجهه ناحيتها.

تراجعت خطوة إلى الوراء وسكنت في مكانها هادئة.

كانت هي..

ريم.

من بين كل العيون التي تفحصته أول مرة بالكافتيريا لمْ ينسَ عينيها.

كان مرتابا في كل شيء.. من هذه العيون التي تعريه.

بالكاد وصل إلى مقعد خالٍ وجلس مصطنعا العمى ليرتاح من سيل الأسئلة التي تتقافز بالعيون.. لكن عينيها الوحيدتين كانتا لا تحملان تلك الأسئلة الفضولية التي تلمع في عيونهم.

بين زرقتهما كان زورق صغير ينتظر وينادي عليه.. لم يكن بمقدوره أن يعرف إلى أين يريد أن يبحر به.. لم يكن بمقدوره أن يصل إليه وسط حصار كل الحواجز والأسلاك الشائكة.

هرب بعينيه بعيدا إلى النوافذ الزجاجة.. خاله شعور أنها تهويمات وأحلام الغرقى.. كان يثقله الشعور بالاغتراب عن المكان.

لطالما حلم بالخروج من وحدته والآن لا يستطيع أن يألف كل هذه الوجوه.. تمنى أن تمر اللحظات سريعا ويعود إلى حجرته.. حتى عندما علت الأصوات وضجت الكافيتريا بصخب المرضى والعاملين لم يكن ليشعر بما يحدث حوله.

حين دق يحيى بإصبعه على كتفه أفاق من شروده.

نهض من فوق مقعده.. نظر إلى يحيى كأنه يستجديه وقال:

ـ أريد أن أعود إلى العنبر.

قال يحيى باندهاش:

– هل يضايقك شيء؟

....

صَمتَ، لم يعرف ماذا يقول له.

قاطع يحيى صمته وقال:

ـ كنت أريدك أن تشاركنا الأمسية..

أعطِ لنفسك الفرصة لتعتاد الآخرين

ستعجبك لعبة الأمنيات

لا تتعجل إنها فرصة لتتعرف بالآخرين.

خطواته كانت أسرع من كلمات يحيى.

كل ما طلب منه أن يصحبه إلى باب الكافتيريا.

كان يتوارى خلف جسده الصغير من كـل تلـك العيـون.. راوده شـعور أنه لن يستطيع أن يقطع كل هذه المسافة من دون رفقته.. حتمـا سـيتهاوى ويسقط.

ظلت عيناه محاصرتين خلف أجفانهما.. لكنهما غافلتاه ورمقتاها بنظرة.

كانت عيناها مازالتا تتبعانه.

ارتدت نظراته بسرعة.

عند الباب شعر بأنه تخلص من أثقال لا يستطيع أن يحملها بشر.

في الجمع وأمسيات الكافتيريا اعتاد نظراتها التي تبدو حانية.. مشفقة.. مشتاقة.. وأحيانا غاضبة، هادرة كبحر عاصف.

لكن ما تأكد منه أن عينيها دائما ترصدانه أينما كان.. تحاصرانه باللوم والعتاب على شيء لا يعلمه ولم يفعله.

ـ لم تهرب مني يا عايد؟

لم يعرف بِمَ يجيبها.

هل تعرف أنه يهرب من الجميـع.. حتـى نفـسه الـتي لا يعـرف عنهـا شيئا؟.

تأمل عينيها الحزينتين.

اتساع زرقتهما لم يمنع زخات المطر من السقوط.

لم يشعر حين سألها إن كان يعرفها؟

كانت أقرب إلى النشيج.. بدا صوتها الناعم كعزف ناي حزين:

ـ هنا لا أحد يعرف أحدا

كلنا غرباء

....

وربما رآها تفر هاربة من دموعها.

٥

في الصباح صحوا شاحبين.

لم يكن عايد يملك إلا أن يرفو جسد أيامه بخيوط الانتظار.

يتناوب أحزانه مع أحزان الآخرين.. يشعر وكأنه في تيه لا حدود له.. لكن شيئا ما يدفعه إلى مجهول.. لا يعرف له ملامح.. يسير إليه بقوة وبلا إرادة.

يتنقل بين الممرات بحثا عن إجابة لسؤال لا يعلمه.

سؤال مستعصٍ على الفهم.. يربض على شاطئ عيني ريم غريقا.. من أغرقه هناك.. من أعطى هاتين العينين الحق في أن تصبحا مرفئا للحزن بدلا من الفرح؟.

هل كانت تعلم أنه سيعود؟.

قالت إنها انتظرته طويلا.. خاطبت الغمامات البيض.. استعطفتها ألا يغيب عنها.

كل يوم تلبس فستانها الأبيض وترنو إلى النافذة وتنتظر.

لم تكن تعرف له اسما..لم تكن تعرف له موعدا.

لكن يقينها قال لها إنه آت.

لا بد من انفلاج الفجر البعيد بعد طول الظلمة.

يحيى أيضا انتظره..كلما قابل أحدهم سأله عنه.

حين أتى لم يعرفهما ولم يعرفه أحد.

هزه يحيى هزات عنيفة:

– لِم أنت صامت؟

لِم يا صديقي زرعوا الخوف بأرضك القاحلة؟!

يهبط درجات السلالم إلى الطابق الأرضي.

تقوده قدماه فوق الإسفلت الموحش من مبنى إلى مبنى.

ترقبه العيون من النوافذ.

يتهامسون فما بينهم.. يسألون.. تتساقط بينهم نظرات الحيرة والخوف.. يمنون أنفسهم الجريحة ويسألون :

– وماذا لو نجح هذه المرة؟!

ريم تئن حديقة مشاعرها.

تهتز شجيراتها لكنها لا تساقط إلا الألم والوحدة والعجز.

تراه يدنو ويبعد.

يلامس الطريق فتأخذه المتاهات بعيدا.

تريد أن تصرخ فيه.. تناديه، لكنه ما زال حبيس أسره..

يعلق انكساراته على مشجبه ويسير.

عند المصلى يتوقف.. شجن الصباح كان ثقيلا وكثيفا.. نداء قديم يستدعيه..

نداء قادم من وراء الذاكرة المحاة.. يسكن أعماق النفس العطشى وسط صحراء التيه.

هل يدق باب الشيخ ويسأله؟.

محمود قاده إلى هنا للمرة الأولى.

كانت الكافتيريا تضج بالمرضى حين دنا منه وسأله:

ـ أنت مسلم ؟!

لم يخطر هذا السؤال بباله من قبل.. لم يخبره أحد عن ديانته!.

كل ما صرح به المحقق مجرد اسم بلا تواريخ أو بيانات.. لم يفكر بينه وبين نفسه في هذا السؤال.. أي شريعة لا بد أن تقوده إلى يقين ما.. لكنه يجالس الوهم بين العنابر والغرف.

نجحوا أن يجعلوه يشك إن كان حيا أم ميتا.

لن يختلف الأمر عندهم أيا كانت ديانته.

مط شفتيه طويلا دون أن يتكلم.

محمود قطع حيرته.. شده من ساعده وربت على كتفه مشجعا وقال:

ـ تعال معي.

لم يكن يعرف إلى أين يقوده.. لكنه أستسلم لإصراره.

ـ سنصلي الجمعة بمصلى المستشفى .

رهبة سكنته عند باب المصلى.

استسلم لنداء بعيد ظل يتردد بأذنيه وجلس خاشعا بآخر الصفوف، يرنو إلى الشيخ ذي اللحية البيضاء.

كان وجهه مضيئا.. كلماته هزت طائرا حبيسا بالقلب.

راوده خاطر أن الشيخ يعرف الكثير.. ربما وجد عنده ما لا يجده عند الآخرين.. فكر أن ينتظر بعد الصلاة ويسأله.. لكنه لم يفعل.

استشعر عيونا ترقبه، تخترقه، تفتش في أعماقه لتستبيح كل شيء.

يقرؤون سطور وجدانه، يسمعون صوت خضر يتردد صداه عميقا، (لكي تعرف لا بد أن تؤمن بفكرة).

بحث في أعماقه..لم يجد إلا شبح الغرفة يطارده.

سحب خطواته وارتد عائدا إلى عنبره.

الجمعة التالية لم يصل.

لم يسأله محمود أن يصحبه.. لم يفكر إن كان لزاما عليه أن يصلى كل جمعة.

ـ هل يجد عنده أجابه ما؟

خطوات وجله لم تنزع كلمات الشيخ عنها الرهبة:

ـ كنت أنتظرك.

يسرج قناديل الدهشة بين جدران السكون الخاشع.

بدا النور بالمكان فيضا خالصا لا ينتهي.. نور أبدى لا يتبدل إلى ظلمه ..

نور يجعل ندف الروح ترفرف بجناحيها وقطرات الدمع تغسل الجراح.

بين يديه جلس.. خلع رداء الصمت وسأله:

ـ هل نحن مرضى؟

ابتسم الشيخ.

تطلع بعينيه إلى السماء.. مرر أصابعه بين لحيته البيضاء التي أعطته وقارا ورهبه وتسلل بعينيه من باب المصلى إلى المباني الرابضة هناك وقال:

ـ الحقيقة الوحيدة إننا لو لم نكن مرض لما استمرينا في هذا المستشفى كل هذا العمر.

ـ والعلاج؟

ـ اعرف الداء تعرف الدواء.

ـ أين؟

ـ.....................

ـ أين؟؟؟

ـ أبحث بنفسك.. لا بد أن تجد علاجا.

....

ربما تحتاج إيمانا مطلقا

....

قدماه تحملانه إلى الإسفلت متخنا بالأسئلة.

كلمات خضر نفسها يعيدها الشيخ على أذنيه..كلمات غائمة لا تسقط مطرا يجلي الغبار عن الأشياء.

تتساقط علامات الاستفهام على رأسه مثل صواعق.

أحيانا يشعر أن كل من حوله كائنات من عاج.. تماثيل لمخلوقات أخرى لا يعرفها.. أطروها ووضعوها متاحف الشمع.

يبحث عن بشر من دم ولحم.. يبحث عن حقيقة ما بين أشباح الأشياء.

تخيل أن تفضي خطواته إلى هاوية ما لا قرار لها.. استولي عليه فتور غامض.. شعر مرة أخرى بهذا الدوار الغريب.. أثارت الدكة الخشبية الموضوعة قبالته اهتمامه وأستسلم لها.

في البداية اشتكى من صداع نصفي.

طارده وجهه في المرايا بأشكال متعددة.. يتحسسه بأنامله مدركا الورم الذي لفه.

باتت نبضات رأسه تزداد مثل طلقات متتالية من رشاش آلي.. لم يقو على التحمل.. ظل يصرخ ويصرخ.. يتردد صدى صرخاته في الفراغ اللانهائي حتى فقد الوعي وحملوه إلى هناك.

حين أفاق مسح بنظراته المكان واختبأ داخل قوقعته.. راوده شك إنه عاد ثانية إلى الغرفة.. ستبقى تفاصيل أيامها موشومة في قعر الذاكرة.. رغم

تشابه الأمكنة إلا أنه وجد أسره هناك..ترقد فوقها هياكل عظمية يلفها العجز والأسى.

تأمل الأسلاك التي تمتد من أبهامه وصدره إلى الشاشة التي تنتصب بجوار رأسه والخطوط الأفقية التي تتوالى أمام عينيه.

دنت إحداهن منه وقالت:

ـ حمد الله على السلامة

بتر آخر الأفكار برأسه وقال:

ـ ماذا حدث؟

ـ لا شيء

مجرد ارتفاع بسيط بالضغط .

ـ ومتى سأعود إلى العنابر؟

تأملت الشاشة المنتصبة فوق رأسه وقالت بلا اهتمام وهى تغادر سريره:

ـ سأعود لأنزع الجهاز عنك.

....

ترك الباب خلفه واستند إلى الجدار.. قرأ اللافتة الباهتة.. **(العناية المركزة)**.أرخى عينيه إلى الأرض.. تردد في أذنيه وقع ثرثارات مهموسة.. رأسه الغائم المرهق يصخي بسمعه لصوت أنفاسهم.

كانوا ينتظرون في الفراغ الضيق أمام الباب.. عيونهم كانت حزينة يسكنها

الخوف والعجز.

وجوههم لم تكن مألوفة.

قال لنفسه: (**بالتأكيد ليسوا من ساكني العنابر**).

أخيرا عليه أن يقابل أحدا بعيدا عن متاهته.

ـ لا أحد يسأل عنا!

ظل ينتظر ويترقب طيلة الوقت.. يتسمع لما يدور بين النزلاء من أحاديث، يبحث عن إشارة أو علامة تدلل على أن هذا المكان يعرفه البشر بالخارج.

بعد الجمعة الحبيسة قالوا إن لجنة زارت المستشفى لتطمئن على أحوال المرضى وإجراءات العلاج.

لجنة لا علاقة لها بنا.

لم تسأل عني.. لم تتحر الوصول إلينا خلف جدراننا المصمتة.

لجنة جاءت لتمر بين الجدران والعنابر الفارغة.

أي مرضى زارتهم إذا كنا جميعا لم نرها؟؟!.

مشوار يائس داخل فؤاد مخزون.

إذا كان قد فقد ذاكرته، فماذا عن الآخرين.. كل نزلاء العنابر فقدوا هويتهم وذاكرتهم.. لم يخطأ أحدهم مرة ويتحدث عن زائر؟.

لا تسمع سوى خوار أبقار تتداعى.

ولو مجرد زائر وحيد يطرق أبواب المستشفى؟!

كل النزلاء بلا أهل أو معارف أو أصدقاء.. هل فقد الناس خارج أسـوارنا ذاكرتهم أم طمسونا من حساباتهم؟.

لا أحد يسأل عنا.

إذا كنا حقا مرضى وكان هذا المكان الذي يقودنا إلى الجنون مستشفى، لم لا يزورنا أحد؟!

دنا من أحدهم.. حدق في ملامح الأسى التي تحفر مجراها بعينيه.. قدر أنه ينتظر مريضا بالداخل.

اصطنع تعاطفا معه وقال:

– حالته حرجه؟

باندهاش رفع عينيه وسأله:

– من؟!

أشار بسبابة كفه اليمنى ناحية باب العناية المركزة المغلق وقال:

– المريض.

....

– أي مريض؟!

– مريضكم.

– لكننا لا ننتظر مريضا

ليس لنا أحد بالداخل.

حدق في وجوههم جيدا..لم يصادف ملامحهم بالعنابر أو بين الطرقات من قبل.

– وما الذي أتى بكم إلى هنا؟

ألتفت عيونهم حوله.. تأملوه كأنما ينظرون إلى ضفدعة تردد نقيقا ببلاهة.. أحدهم أزاحه من طريقه قائلا:

– ننتظر الطبيب!

تدافعه الأيدي.. أصابعهم بدت مثل مخالب لطيور جارحة، ظلت تنعق:

– إننا نسكن العنابر من قبلك.

– المباني كثيرة لا حصر لها..

– المرضى كثيرون بلا طائل..

– نريد الطبيب..

– إذا كنت تعرف طريق الطبيب دلنا عليه..

الطبيب.. الطبيب.. الطبيب.. الطبيب.. الطب.... ال....

لا يعرف كيف استخلص نفسه من بين مخالبهم.. جر خطواته بتثاقل فوق الإسفلت الرمادي القاتم، كأنه يحمل جبال الدنيا فوق كتفيه.

ظل يسير بخطوات يائسة متعبة حتى وصل إلى عنبره.

إلى جانب يحيى جلس.

رنا إلى لا شيء وقال بصوت مهدود:

- لا أحد..

....

لا أحد يدخل إلى هنا أو يخرج.

٦

كل شيء توقف عن العمل.

بدا وكأن المستشفى دخلت غرفة الإنعاش وبحاجة ماسة إلى اسطوانات الأوكسجين.

المرضون تركوا العنابر والأقسام.. ضاعوا من العيون إلى سراديب مجهولة.. الصيدليات أغلقت.. المطعم لم يشتم له رائحة.

سكنت الحركة المعتادة للعاملين بمداخل الحجرات والعنابر، واحتل الممرات هاجس غامض.

الأبواب والنوافذ بقيت على حالتها في جمود.. عايد وصاحباه حالفهم الحظ و بقي بابهم مفتوحا.. نافذتهم المغلقة لم تشغلهم كثيرا.. عنابر كثيرة تركوها مغلقة الأبواب والنوافذ.. ظل ساكنوها أسيري الجدران والعتمة والترقب إلى وقت غير معلوم.

التمرجيات لم يظهرن.. الترولیات في فوضى تسد الطريق بين العنابر والأقسام.. عاملو النظافة وبائعو المشروبات أين ذهبوا.. الكهرباء أصابتها عدوى الوباء وانقطعت بلا مقدمات.

لم يسمع أحد الموسيقى الرتيبة التي تعقبها بيانات وتعليمات إدارة المستشفى.. لم تومض شاشات العرض هذه المرة وظلت ترتدي السواد.

تسحبوا من عنبرهم بحذر.

يحيى تقدمهم ليستكشف المكان.

غيوم غامضة حلقت في سماء المبنى.. الجدران حجبت النور عن الممرات.. مرضى آخرون تراجعوا خائفين خلف أبوابهم المواربة حين شاهدوا الشبح الذي سكن الممرات..لم يعرفوا إنه يحيى.. حين اصطدم بإحدى الناقلات أثار الفزع في نفوسهم.. العيون الضيقة اعتادت العتمة مع الوقت وانفلات خيوط الضوء من بعيد إلى الممرات.

محمود امسك بذراع يحيى.. جسده تعاوده رجفة خفيفة.. همس بحذر:

- لا يوجد أحد!

الطابق خلا من رجال الأمن.. أبواب المصاعد تركت مفتوحة.. بدا وكأنهم في لحظة قرروا جميعا ترك المكان دون أعداد مسبق.

- ليست عادتهم

خرج صوته واهنا وضعيفا.

مهما حاول عايد ألا يكون مضطربا فلا يمكنه تجاهل أن شيئا غريبا يحدث.. لم يتوقع أحد رؤية الممرات خالية من رجال الأمن.. بإمكانهم توقع أي شيء إلا أن يخلو مكان من أفراد الأمن، خاصة بعد أحداث الجمعة الأخيرة.

حينها لاحظوا تغيرا بسهام.

كان من السهل على كل من بالمستشفى ويعرفها أن يرى غمامات حزينة تكسو عينيها الذابلتين.. باتت مثيرة للشفقة والقلق.. تزداد عصبية وحدة بلا معنى مفهوم.. عيناها تسكبان خوفا خفيا.. لم تعد تطيق كلمة من أحد.. شجاراتها مع زميلاتها والنزلاء في تزايد مستمر.. النزلاء كانوا يعذرونها ويشفقون عليها.

ما يحدث رأوه طبيعيا بعد أن رفضت المستشفى زواجها بحسين.

لم يقدموا سببا لرفضهم.

الجميع يعلم إنها لم تكن لتعيش إلا على حبه، فلماذا ترفض المستشفى ارتباطيهما؟.

الجمعة الأخيرة كان النزلاء كعادتهم يلعبون لعبة الأمنيات واختارت القرعة حسين ليقول أمنيته.

....

حسين وقف مرتبكا كأنه لا يجد كلمات ليقولها، أو كانت الكلمات ثقيلة على لسانه.. يهم أن ينطق بالأحرف ثم يتراجع متلعثما.

براحة يده مسح عرقا خفيفا بلل جبينه.. كان يقضم بأسنانه على شفته العليا محاولا استجماع شجاعته والكلمات ليقذف بهما معا مرة واحدة:

-............أ

أتمنى...

أتمنى ألا أصبح جدارا في سور..

النزلاء وقعت نظراتهم بعضها فوق بعض وارتدت إلى أصحابها تحتفظ بمعانيها مبهمة غامضة دون تأويل أو إفصاح.

خرست الألسن والأسئلة.

تدحرجت النظرات بين الطاولات والى السماعات التي تتكاثف بالجدران، ثبتت عند شاشة العرض، تتابع كرتون توم وجيري، لم تنجح مغامراتهما في انتزاع الترقب من العيون أو الابتسامة من الشفاه.

تتابع العرض بعد العرض.

الفأر الأمريكي ينجح مرات ومرات في خداع القط..لم تقنع كتب التاريخ وعلم الحيوان والت ديزني في تغيير نتيجة المعركة.. ولم نمل من مشاهدة اللعبة السخيفة وكأننا قنعنا بدور المتفرج.

عايد الوحيد الذي لم يتتبع العرض الأمريكي.. لم ينتبه إلى المقاعد والطاولات التي تحولت إلى كوات من الصمت.

الصحيفة شغلته عما يدور حوله.

بعد محاولات كادت تصيبه باليأس أعطاه أمن الاستعلامات نسخة.

ظل لبرهة لا يعرف ماذا عليه أن يفعل.. هل صدقوا في كلامهم وأعطوه الجريدة أم يستدرجونه ليقع في فخاخهم.. رمقه أحدهم بغضب.. صاح في وجهه:

– صدعت رؤوسنا كل يوم بالسؤال عن الجريدة

خذها واغرب عنا!.

كـانوا يغمغمـون فيمـا بيـنهم، لكنـه لم يكـترث لكلمـاتهم وضـحكاتهم الساخرة.

كان فرحا بحصوله على الصحيفة.. ظن في نفسه إن البـاب الـذي يُفـتح يصعب إغلاقه.. لا يعرف لِم بدأ تـصفح الجريـدة مـن صـفحتها الأخـيرة.. الشوق الجارف لم يمنعه أن يلقم الأحرف حرفا حرفا.. الصفحة لم تكن إلا إعلانا كبيرا عـن مـشروب غـازي ينتـصب أمامـه بواجهـة فترينـات باعـة المشروبات.. الصفحات الأخرى سودها مداد الكلمات.. صفحة بعد أخرى.

(إنا لله وإنا إليه راجعون)

(البقاء لله..)

(فقيد الأشراف)

(انتقل إلى الأمجاد السماوية)

(وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين)

الـذكرى الـسنوية الأولى.. الـذكرى الـسنوية الثالثـة.. الـذكرى الـسنوية العاشرة.. احتفاء لا نهاية له.

صفحة وراء صفحة تطارده أسماء المـوتى وذكـراهم.. إعلانـات لا تنتهـي عن سلع يعرفها وأخرى لم يرهـا مـن قبـل.. صـفحة وراء صـفحة يـسكنها الفراغ.. فراغ كبير ُنحت بمهارة ودقة.

لم يجد إلا خبرا وحيدا تصدر الصفحة الأولى.

الداخلية تنفي وجود سجون تحت الأرض

نفى أحد كبار قيادات الداخلية وجود سجون تحت الأرض
مؤكدا أن جميع المودعين في السجون تحت إشراف النيابة
العامة ويتم أحاطتها بقدر كبير من العناية والاهتمام.

قطعت سهام الصمت القلق الذي لف الطاولات وقطعت استغراقه في الصحيفة.. نهضت واقفة وصرخت بهيستيرية:

– وكيف يمكنك أن تصبح جدارا

....

كيف؟؟

كيف يمكنك..

كيف يمكنك أن تصبح جدارا..؟!

ظلت تردد صرخاتها بغضب دون أن يجيبها.

تدفع وتركل كل ما حولها.

يحيى حاول منعها لكنها دفعته حتى كاد يسقط على الأرض.. لم يعرف من أين واتتها القدرة والقوة على دفعه رغم جسدها الهزيل.. تركت الطاولة وذهبت إليه.. ظلت تضرب صدر حسين بقبضتي يديها وتصرخ:

ـ كيف؟

كيف؟

النزلاء نهضوا واقفين وظلوا بأماكنهم كأنهم كائنات من خشب أجوف.. لم يستطيع أحدهم أن يفعل شيئا.

دمعة ثقيلة سقطت من عيني حسين على خده حين انهارت سهام وسقطت مثل ورقة ذابلة على الأرض.

حملها المرضون فوق (الترولي) وصحبوها معهم.

أيام مرت لم يرَّ النزلاء فيها حسين أو سهام.. تساءلوا فيما بينهم عن مصيرهما.

لم يكن أحد يعرف الإجابة.

لكن يحيى قال بثقة:

ـ حسين سيعود

....

لكن سهام هي التي عادت.

نظر المرضون إلى يحيى بتشفي وقال أحدهم:

ـ لا أحد في المستشفى يعرف شيئا..

الوحيد الذي يعرف ويقرر هو الطبيب.

صاحت سهام التي كان يكسوها الشحوب والتعب في وجه الممرض وقالت:

ـ أنتم تأكلون طعامنا..

....

تهربون أدويتنا خارج المستشفى

....

تعيشوا منعمين ولا تعطونا إلا الفتات!

ما أن نطقت سهام بكلماتها حتى اشتمت أنوفهم تلك الرائحة.

طاقت نفوسهم إلى الرائحة ولم يعد باستطاعتهم تذوق ذلك الطعام المسلوق.. حركت الرائحة شيئا غريزيا أقوى من إرادة الجميع.

ـ إننا فقراء.. محرومون من كل شيء.

لا نحصل إلا على الروائح والصور..

....

رائحة الطعام

رائحة الهواء

رائحة الحياة

نريد أن نلامس شيئا حقيقا واحدا.

لا يهم ماذا يكون..

أريد أن أشعر إنني مازلت حيه؟

الكلمات وقعت في قلب عايد.. دقت وترا لم يعزف عليه أحد من قبل..

لكنه لم يعرف من الذي قالها وهل سمعها الآخرون أم لا.

رنا بنظراته ناحية ريم.. رأى بعينيها شيئا شبيها.. ليس من أجل الطعام أو الدواء.. من أجل شيء آخر لا يستطيع تحديده.. أغلى من الطعام والدواء.. يعرف أنه موجود لكنه لا يقترب من هذا المبنى أو تلك المباني الميتة.

لابد أنه موجود هناك خارج تلك الأسوار التعسة.

كانت الرائحة مثل خيوط وهمية لا يراها أحد لكنها لامست أنوفهم وحركت حرمانا كامنا في النفوس.. سادت حالة من الهرج.

تبادل النزلاء والمرض الكلمات مثل طيور عصبية.

تلك الرائحة لم يستطع أحد مقاومتها.. انساقوا خلفها بخطوات ممسوسة.. لم يعيروا لشيء آخر اهتماما.

عايد تخلى عن حذره في لحظة وسار مخدرا تدفعه قوة خفية أكبر من أن يستطيع مقاومتها.

تتردد في أذنيه كلمات ريم وتدق رأسه مثل ناقوس:

ـ الماضي لا يمكن أن ينسى كله.

كان يبحث عنها وسط تزاحم النزلاء.هل رأى في عينيها فرحا لم يره من قبل؟

النزلاء مسحوا بنظراتهم الممرات والأبواب حتى وصلوا إلى باب المطعم..

كان المرضون يجلسون حول الطاولات.. تتراص أمامهم أشكال وصنوف شتى من الطعام والشراب.

رفعوا عيونهم البلهاء ناحية النزلاء الذين احتشدوا بالباب ووزعوا عليهم ابتسامات باردة.. ابتسامات منتزعة من شجرة سنط عجوز.

خوف ما قفز بين الطاولات وحاصر عيونهم.. خوف لم يره أحد من قبل إلا في عيون النزلاء.

دوّت صافرات الإنذار.

أعداد مهولة من أمن المستشفى هرعت إلى قاعة الطعام.. جيوش مثل جماعات من النمل تتوالد وتتقافز وتحاصر النزلاء.

كانت صرخات سهام تتوالى.

بعضهم رأى حسين يرتدي ملابس الأمن ممسكا بعصا غليظة، والآخرون ملأ الدخان عيونهم وحاصرتهم العصي إلى العنابر.

هذه المرة لم تعد سهام ولم يعد معها آخرون.

كان بإمكان النزلاء وبخاصة عايد معرفة ما آل إليه مصيرهم، لكن ذلك لم يمنع من بقوا بالعنابر من التفكير في تلك النظرة التي رأوها بعيونهم.

تلك النظرة التي منحتهم السعادة ولو للحظة ولم تجعل لوقع العصي على أجسادهم أي ألم.

الممرات كانت خالية.. لكن بعد فترة تبع آخرون يحيى وصاحبيه..

يحيى أشار ناحية السلالم وقال:

ـ نهبط إلى الطابق الأرضي.

كان الطريق إلى الطوابق الأخرى مغلقا بأبواب من حديد لم يرها أحد من قبل.. متى وضعوها؟.. لا أحد يعرف.

الضوء أطل باستحياء من نافذة مدار السلم.. هدرت أصوات من خارج المبنى:

ـ عاش.. عاش.. عاش

عاش.. عاش.. عاش

تكوم النزلاء فوق زجاج النافذة.

تطلعت عيونهم إلى الإسفلت الذي غطته الرؤوس السوداء الحليقة.. الأيدي التي تهتف بحرارة.. الرايات التي ازدانت بها الطرقات والممرات.

لافتات امتدت من بين المباني تؤيد وتبايع وتشيد بتقدم المستشفى وريادتها بالمنطقة.

ـ من أين أتى كل هؤلاء؟

عمال نظافة.. تمرجيات.. أمن.. ممرضون وممرضات.. آخرون.. لافتات وأبواق.

سأل أحدهم دون أن يجيبه أحد.

بنظرة مذابة على المستشفى تأتلق الأعين باحتفالات وأغاني.

أحدهم قال إنه يعتقد إنهم يحتفلون بذكرى تأسيس المستشفى، لكن ما ذنبنا ليحبسونا خلف جدراننا؟.

يحيى قال إنه لا يتذكر إنهم احتفلوا يوما بذكرى التأسيس.

منذ سنوات طويلة مرت لم يسمع أحد عن احتفال بين أسوار المستشفى إلا الاحتفال بعيد ميلاد الطبيب.

ربما قرر رأفة بنا أن يحتفل به مرتين أو أكثر.

– عاش.. عاش..عاش

– نحن فداك.. نحن فداك

– ....

يتطلعون إلى ما يدور حولهم غير عابئين.

ظلت العيون أسيرة لعلامات الاستفهام.

اللحظات تمر متباطئة. الجوع والعطش يقرصا الأبدان العليلة، والسأم يركض بين الممرات والعنابر، يرقد مسترخيا فوق الأسرة الحزينة.

عيون لاذت بالنوم وأخرى لاذت بصمت غاضب مقهور حتى انقضى اليوم الطويل ودوت الصافرات وعادت الكهرباء إلى المباني وومضت شاشات العرض.

كان صوت المذيع الداخلي جهوريا ممتلئا بالحماس حين قال:

"تحت إصرار المرضى والنزلاء والعاملين بالمستشفى تراجع الطبيب عن تقديم استقالته ليكمل مع مرضاه مشوار العلاج الطويل".

٧

اخترقوا الطريق إلى المبنى البعيد.

أمـام الإطـارات الحديديـة لنوافـذ الـصيدلية وقفـوا في صـفوف متراصـة، يتطلعون إلى شفاء للخروج من زنزانـة المـرض والـتخلص مـن مـرارة الأدويـة ووخز الإبر.

الألم الذي اعتادته أجسادهم وأرواحهم يتناولونه مع أقراص المخدر كـل يوم مرات ومرات ولم يُشف أحد.

عينا عايد كانتا مثبتتين علـى المرضـة الـتي تنـاولهم الـدواء مـن خلـف السياج الشائك.

لم تنظر إلى وجوهم.

لم تقع نظراتها على عيونهم المستسلمة.

بعـضهم يأخـذون الـدواء وينـصرفون في صـمت إلى عنـابرهم.. الآخـرون يترددون في الكلمات قبل أن ينطقوها.. كلمات كثيرة تمـوت علـى شـفاههم قبل أن تنطق ألسنتهم الحبيسة كلمة لا معنى لها.

في كل الأحوال لم تكن تعيرهم اهتماما.

بدوا لعايد مثل أشجار تعرت من أوراقها.. عدد من قطيع يـسير في رتابـة اعتادوها واستسلموا لها بخشوع فظيع.

استغرق سريعا في أفكاره.

تطوف برأسه طائرات التوما هوك وتقذفه بأسئلة متعبة.. تومض وتتفجر مثل جمرات   تومض تحت الماء.

لا يعرف لِم تذكر الآن ذاكرته المفقودة؟!.

لا يستطيع أن يلملم أو يعيد ما أتلف الزمن.. لم يحدثه أحد عن حالته المرضية أو تطور العلاج الذي لا نهاية له.. كأن مرضه سر في بطن حوت لا يطّلع عليه إلا نبيّ.

من جانبه لم يهتم.. استسلم لزجاجات الأدوية وأقراص البرشام والمخدر.. ترك الوقت يمر وأَسلم نفسه إلى الصمت والظلمة.. اندس مع بقية النزلاء تحت لحاف الصبر وانتظر حتى جمده البرد والأسى.

هل هو بحاجة حقا لذاكرته ليشفى.. ماذا عساها تحمل ذاكرة تحاصرها الجدران والأسلاك الشائكة غير تلال الرمال وصبار الوحدة؟.

لا بد أنه واحد من هؤلاء المسوخ.

ريم قالت له إنها لم تكن تخشى سوى اللحظة التي سوف يتحدث فيها معها.. كانت تريده أن يختارها من بين الأخريات.. كانت تريد أن تتركه ربما وقع في حبها مثلما فعل في الماضي.. حين سألها عما تعنيه تركته وانصرفت.

ماذا كان يريدها أن تقول؟!

....

لحظات مملة ومكررة.

حياة مليئة باللا جدوى نجيد فن أعادة صياغتها مرات ومرات دون أن نمل.

يشعر كأنه في تيه لا حدود له.. كل شيء أصبح غامضا ومعتما.. بدا أكثر أجهادا.. رغبة مجنونة تجتاحه.

بإحساس يبلغ حد الإلحاح صاح:

ـ أريد طبيبا.

النزلاء تحول كل واحد منهم إلى حلزون اختبأ في قوقعة وأغلقها عليه.

كأنهم لم يسمعوا وكأنه لم يصح فيهم.

لم يكن هناك ما يشير إلى معاودة الهياج له وخروجه عن المألوف، اعتاد معاودة الصيدلية مرات ومرات، في كل مرة يأخذ دواءه في صمت ويعود إلى العنابر.

الروتينية والرتابة سمتان لا تفارقان جدران المستشفى.. ريح هبت وكنست أي أمل أو رغبة.. فماذا حدث اليوم؟

لم ير أحد شيئا أثاره

ـ أريد طبيبا

....

خرج عن الصف.

كان يلف ويدور بالمكان كطائر ذبيح في انتظـار الـسقوط الأخـير.. يجاهـد مثل حيوان مخنوق لكي يلتقط الهواء.

لم تعنه نظرات الشفقة والأسى التي أطلت بلوعة من عيون المرضى.

خضر الوحيد الذي كان باستطاعته أن يفعل شيئا.

تقدم إلى السياج الحديدي وتسلم دواءه ودواء عايـد، جـر خطواتـه بهـدوء واتجه ناحيته، هزه هزات عنيفة ودفعه أمامه خارج الصيدلية.

عند الرصيف افترشا الأرض وجلسا.

كان وجهه مختنقا من الألم، صدره يعلـو ويهـبط، دفـن رأسـه بـين سـاقيه وبكى.

صوته احتفظ ببقايا دموع مضطربة حين قال:

ـ أريد أن أعرف شيئا عن حالتي..

أي شيء؟!!

خضر لم يكن ينظر إليه.. رنا إلى المباني الرابضة مثل شواهد القبور وقال:

ـ كلنا نعاني المرض نفسه

لا أحد يتذكر شيئا.

....

المرضون والعمال والأمن

كلهم مثلنا

لا يعرفون شيئا..

لكنهم يختلفون عنا في أنهم يقبضون ثمنا لذاكرتهم المحوة

....

بعض الطعام الطيب، شعور زائف بالأمان والحياة بعيدا عن الغرف المعزولة.

شخص واحد يتحكم في كل شيء..

كأنه لم يولد في هذه الأرض وهبط من فضاءات الكواكب المترامية بالسماء.

شخص أسطوري بملامح جبارة تجعل كل ما يقرره صوابا وكل أوامره دستورا.

..

الطبيب الجالس في المبنى الرئيس.

المبنى الذي لا يستطيع أحد الاقتراب منه!.

لا يعرف لِم جفل من كلمات خضر؟.

شعر بأنها انتزعته من متاهة وألقت به إلى أخرى، حدق في ملامحه كأنه يراه لأول مرة، سأل نفسه إن كان رآه من قبل، هل صادفه بين الممرات أو بالكافتيريا.

أليس هذا الرجل من يتهامس عنه المرضى؟.

بدا كأنه أفاق لتوه.. بعينين زائغتين سأله:

ـ من أنت

....

ماذا تريد مني؟!

اعتدل خضر واقفا. ألقى كيس الدواء بحجره واستدار عائدا في الطريق إلى عنبره دون أن يمنحه إجابة.

ظل يراقب خطواته العجوز تدق الإسفلت بصبر وأناة، لمح عينيه تبتسمان بهدوء حين التفت ناحيته مواصلا حديثه:

ـ الطبيب الذي لم ينزل يوما إلى مرضاه.

لم يضع يوما سماعة على صدر مريض ليعرف أين يكمن المرض

....

٨

أحد المصابين في أقواله لوكيل النيابة:

الهروب من المكان كان مستحيلا.

عادة تصفح قصاصات الصحف لم تفارقه بعد أن أبـدت الإدارة مرونـة غير معتادة مع النزلاء.. لم يعد يضايقه أحـد عنـدما يطلـب الـصحيفة مـن الأمن.

التجول بين العنابر والممرات امتد لفـترات أطـول، الأبـواب تظـل مفتوحـة لأوقات متأخرة من الليل.

أحيانـا سمحـوا للمرضـى بـالتريض وممارسـة كـرة القـدم علـى الإسـفلت الرمادي، لكنهم لم يسمحوا أن يكون الفريقان المتنافسان من المرضى.

مع الوقت لم تعد اللعبة مجدية.

عزف المرضى عن خوض المباريات التي تنتهي دائما بهزيمتهم.

ـ هل حاول أحد إطفاء الحريق؟

ـ "أيوة" لكن النار أسرع

والتهمت المكان بسرعة.

يحيى كان عند باب المبنى المقابل برفقة سلوى.

بدا وداعا فـاترا، اندسـت بعـده سـلوى بـين الجـدران بينمـا جـر يحيـى خطواته ببطء على الإسفلت الساخن.

الخطوات ثقيلة وبطيئة.. دوائر واسعة تتكور أمام عينيه.. تضيق وتصغر حتى تتلاشى إلى نقط فوق الإسفلت.

توقف حين شعر بالدوار.. لو ترك نفسه للحظة لسقط على الأرض.

انتبه لعايد مفترشا الرصيف الذي غطته شمس خريفيه.. تحامل على نفسه وواصل السير حتى وصل إليه.

منذ صغره اعتاد على القيام بالأشياء لمجرد أنها تعجبه، تنسيه الجدران العالية والأسلاك الشائكة.

سلوى كانت إحدى هذه الأشياء، إحدى المحرمات النادرة التي استطاع اختراقها بتواطؤ ما.

كثيرون مثله بين جدران العزلة، جرفتهم الحياة ولم يستطيعوا أن يقفوا أمامها مرة ويقولون لا.

لم يسمح بأن تعترضه الحياة بواقعيتها المؤلمة، بوجهها الشائه.. كلما وجد فرصة للهروب لم يفوتها.

انتبه عايد إلى صاحبه الواقف أمامه، تأمل ملامحه الفزعة.

بدا القلق متحفزا بين نظراته الزائغة.

سأله إن كان حدث شيئا.

جلس إلى جواره فوق الرصيف ولم يرد.

تأمل عايد قرص الكمبيوتر بين يديه، لمح في هدوئه وصمته شيئا مرعبا.

سأله باندهاش:

ـ ....؟!!

نظر إليه بعينين بائستين وأطرق إلى الأرض .

كان يرج كيانه خوف ما، ربما شيء أخطر مما يتخيل عايد.

شيء يدفعه إلى الذعر والعجز.

حاول أن يخفف وطأة الحزن عنه، قال إن النزلاء كانوا فرحين بفيلم البارحة، شاشات العرض استمرت لوقت متأخر من الليل، هذه المرة لم يقطعوا المشاهد التي تحتشد بالقبل، كنت مستغرقا في النوم رغم كل محاولاتي لإيقاظك، محمود كان يقفز ليقبل شاشة العرض.

السحب ازدادت قتامة. انخفضت شيئا فشيئا وتوارت الشمس الخريفية.

كان يحيى يسب ويشتم دون أن يفهم عايد معنى الكلمات

اختنقت ملامحه وكاد الدمع ينفجر من عينيه.. همس بصوت متعب كأنه يحادث نفسه:

ـ لم أعش لحظة واحدة سرية

....

إننا ننفق حياتنا عبثا..

أمسك بقرص الأسطوانة بيده وأشاح به في وجه عايد وتغيرت نبرات صوته إلى غضب مصحوب ببكاء:

– إنهم يسجلون كل شيء..

كل شيء ستجده هنا.

....

كنت مثل هر صغير يبحث عن أكثر الأمكنة دفئا ليسكن فيها..

يحتمي من الصقيع الذي يغطى جنبات المستشفى. وكانت سلوى لحظة الدفء التي أنشدها.

لكنهم لم يكتفوا بما يملكون من أسلحة..

دائما يبحثون عن المزيد

سجلوا كل شيء.

حتى أكثر لحظاتنا حميمية

....

كانت معهم طيلة الوقت!!

انكفأ عايد على صفحات الجريدة، يقاوم رغبة شديدة بالتقيؤ.

ـ أخشى أن النهاية أمست قريبة يا عايد

....

ـ وما تعليقك لحدوث ذلك الحريق

ـ الحريق كان محتملا دائما.

٩

عربة إسعاف دخلت إلى المستشفى.

دوت صفاراتها وأبواقها اللاهثة بين المباني العالية.. ضوت لمباتها بوهجها الأحمر المشتعل وحلق ضوءها في سماء المستشفى مثل قطيع من الغربان المذعورة، يتخبط بين الأسطح والجدران، ينقر زجاج النوافذ ويفر سريعا كشبح.

لم يستطع أحد تكذيب عينيه.

لم يستطيعوا تكذيب آذانهم التي خرقتها صرخاتها المدوية كأنات ألم لا ينتهي.

تراءت أمام عيونهم أناتهم الحبيسة، تقف مكبلة أسيرة.. تمنوا لو امتلكوا القدرة على الصراخ بكل ما أوتوا من ألم، لكنهم لم يقووا يوما على تحقيق أي رغبة تعتمل في نفوسهم.

الصرخة هي كلمة الاحتجاج أمام وحش قاس بلا قلب أو عنينين، يطيح بمخالبه الحادة و يمزق أجسادهم.

داء لا براء منه.

لم يقترف أحدهم خطيئة ما لينال هذا العقاب.. إن اخطؤوا فهم بشر.. (**من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر**).. إنهم مستسلمون.. عاجزون..

لم يُمنحوا يوما الاختيار ففقدوا إرادة الفعل.. عجزوا أن يصبحوا حجارة أو حصى يحرك راكد البحر.. كم هم بائسون إلى أقصى مدى؟.

ربما تنجح الصرخة في علاج أمراضهم التي عجز عن مداواتها الطبيب، لكنهم كلما حاولوا فشلوا.

كل ما يصبون إلى تحقيقه أخفقوا فيه.

شيء أقوى منهم حبس صرخاتهم وجعلها تنزف قيحا في الحلوق، شيء يكبر وينمو مع تراكم الأيام بعضها فوق بعض.

كيف تعملق وأسر الأجساد والأرواح وجعلهم لا شيء؟.

د. فالي نصح رجب بطل منيف في (**شرق المتوسط**) أن يكون حاقدا وهو يحارب.. (**الحقد هو أحسن المعلمين.. يجب أن تحول أحزانك إلى أحقاد وبهذه الطريقة وحدها يمكن أن تنتصر.. أما إذا استسلمت للحزن فسوف تهزم وتنتهي**).

ربما كان الحقد الدواء الذي يبحثون عنه.. الدواء الذي يوقظ الأرواح والأجساد من غفلتها الطويلة واستسلامها لأسرة المرض.

فلِم تتناوم الأحقاد.

لم لا تستيقظ لتمنح أجسادنا مناعتها ثم تعاود نومها الأبدي؟.

في دوامة الحزن تتراءى أمامهم أشياء كثيرة، لا يفرقون بين ما هو واقع أو خيال أو تهويمات، لم يعرفوا يوما معنى للحلم.. الحلم طاقة لا يملكها إلا

الأحياء، أما نزلاء المستشفيات من المرضى فلا يملكون إلا التصارع مع الكوابيس التي لا ترأف بالضعفاء والمهزومين، تطاردهم أينما ولوا، في صحوهم وسباتهم وغفلتهم المتأنية.

انطفأت أرواحهم ووجوههم ولم يبق لهم إلا أن يرتموا بين أحضان الخيبة والحسرة وقلة الحيلة.

هرعوا إلى النوافذ يتحسسون الطريق إلى رؤيتها تضوي بين كتل الظلام التي جثمت على الطرقات والمباني.

طوال حياتهم بالمستشفى لم يشاهدوا عربة إسعاف تدخل إلى البهو.

تخطت الطريق الإسفلتي الطويل من الاستقبال إلى الإدارة ووضعت مؤخرتها عند الباب، بعدها أُغلقت المنافذ آليا ولم يعد باستطاعة أحد أن يتكهن بما يحدث.

في العنابر افترشوا الحيرة وجلسوا يلوكون الدهشة والأسئلة.

لماذا تكسر عربة الإسعاف قوانين المستشفى وتركض إلى هناك؟!

تمدد يحيى فوق سريره، وضع الوسائد تحت قدميه وحمل رأسه ناحية السقف بكفيه المتشابكين، يخرق السقف بعينيه إلى السماء الزرقاء البعيدة.

لا يعرف كيف تولد الحلم بين الحيطان العالية، لكنه بات مشغولا به عن كل ما حوله، بينه وبين نفسه لم يكن يعتقد أن عايد سيعود، لم يكن أحد في المستشفى ينتظر أو يتوقع ذلك.

لكنه عاد ويعيش بينهم من جديد.

ربما لا يكون الشخص نفسه.

ربما يكون شبيها تم استنساخه وأعادته إلى عنابر النزلاء لغرض في نفوسهم.. لكنه عاد ولو كصورة.

ربما أعطتهم الحياة ثقبا للوصول للمستحيل.

لا ينسى أبدا ذلك اليوم، كانت الفكرة تلح كشيطان على رأسه ولا يستطيع أن يحادث بها أحد، حاول أن يلقي بها إلى سلة المهملات لكنها كانت تباغته وتظهر أمامه من جديد.

لم يعرف ماذا يفعل.

دائما يتراءى أمامه المعطف والقفاز.. بين الصحو والإغفاء يرى نفسه يبتسم من دون مناسبة، يضحك.

شيء من الجنون أصابه.. وما المانع.. ألم تسمح الإدارة بدخول الصحف.. ألم تعرض شاشات العرض ما بدا عرضه مستحيلا في الأيام التي ولت.. ألم تقل سهام ما لم يقله أحد قبلها.. ألم يصبح حسين رجل أمن بالمستشفى.

من كان يصدق كل هذا؟

يعود ويسمع صوتا يحتج داخله.. (المعركة خاسرة ومحسومة مسبقا).

لم ينتبه إلى أن شروده أصبح ملحوظا إلا عندما ألقت سلوى الوسادة على وجهه وقالت بغنج:

ـ لا.. لا... لا

يبدو أن هناك ما هو أهم مني يشغل بالك.

التصقت الوسادة بوجهه وسقطت بين قدميه.

حدق في عينيي سلوى ربما لفترة طالت.. كان يريد أن يزيح العبء الذي يثقل رأسه ويحادث أحدا فيما يراوده من أفكار.. هل يبوح لسلوى؟.. ومن يضمن نتيجة الكلام.. إنها مجرد أحلام.. لكنه متأكد أن بإمكانهم محاكمة وإدانة أي نزيل على مجرد الحلم، دون أن يحاسبهم أحد.

ـ هيه

هل تعجبانك إلأى هذه الدرجة؟

قالت كلماتها بعد أن لاصقت عيناها عينيه.

طافت برأسه كلمات أحمد عبد المعطى حجازي.. لم ير الكلمات تناسب عينيها المتحررتين.

عيناها متفجرتان بالنزوة، لكنه وجد نفسه يرددها بصوت بطيء.

هل كان يرى عينين لامرأة أخرى، عينان رابضتان خلف الغيوم تنتحبان، عينان لامرأة ترقد وحيدة عند حافة المستحيل:

ـ عيناك!

يا لكلمتين لم تقالا أبدا

خانهما التعبير

حتى ظلتا كما هما

راهبتين تلبسان الأسودا..تنتظران ليلة العرس سدى!

انتظريني كل ليلة هنا

قد أجيء

أو لا أجيء

قبلتنا طويلة

وليل حبنا دفيء

ضحكت وأزاحت شعرها المفرود إلى الخلف، بينما تلملم شتات نفسها وملابسها:

ـ لم أكن أعرف أنك شاعر

....

على العموم لن نلتقي غدا.

ـ لماذا؟؟

أشارت بأصابعها إلى منتصف فمها ووضعت قبلة باهتة بين شفتيه وتركته وانصرفت.

ظل ساهما للحظات يعيد على رأسه كلماتها.. (لن نلتقي غدا).. جملة رددتها سلوى في مرات سابقة.

في كل مرة نظل حبيسين بالعنابر.

قبـل الجمعـة الحبيـسة وبعـدها تحـدثوا عـن زيـارة لجنـة خارجيـة للمستشفى، قالوا إنها تأتي لتبحث في مشاكل المرضى.

(لن نلتقي غدا)

جملة دائما ما تسبق زيارات اللجنة.

تلك اللجان التي اعتادت على زيـارة المستـشفى في الآونـة الأخـيرة والـتي بات واضحا للجميع أن لا هم للإدارة إلا إرضاءها هل تستطيع مساعدته؟.

منذ تركته سلوى لم يشغل رأسه شيء آخر.

كيف يستطيع الوصول إليها وهم يتعمدون إغلاق الأبواب والنوافذ طيلة زيارة اللجنة، إن استطاع الوصول إليها ماذا ستفعل له، هل سيسمعون له، هل سيتركه الأمن يتحدث معها وان تركوه، ماذا سيفعلون به بعد أن تغادر اللجنة المستشفى.

شيء أكبر منه جعله لا يعود إلى العنبر، ظل يتجنب أن ترصده العدسات التي امتلأت بها الجداران والممرات.

في واحد من صناديق القمامة ألقى بنفسه داخله وظل منتظرا حتى يحل الصباح.. لن يكون مصيره أشد قسوة من أبطال غسان كنفاني في (**رجال في الشمس**).

بعد أن أيقظته أشعة الشمس التي تسربت مثل خيوط ذهبية إلى الصندوق ظل

يترقب وصول اللجنة، الدقائق والثواني مرت متباطئة.

كان يحبس أنفاسه خوفا أن يسمعها أحد وينكشف أمره. حين سمع جلبة أقدامهم، رفع غطاء الصندوق وألقى بنفسه أمامهم.

رجال الأمن حاصروه من كل اتجاه.. نظرات كبير المرضين تطايرت بالشرر في كل اتجاه.. نصحوا اللجنة أن تعود وتسلك طريقا آخر خوفا على سلامتها، لكن أحدهم أشار لرجال الأمن أن يتركوه، لم يعرفوا ماذا يفعلوا، بدا أنهم ينتظرون أمرا من المبنى الإداري.

لا يملك أحدهم التصرف في هذا الموقف المفاجئ للجميع.

بدا تذمر اللجنة واضحا حين لم يترك الأمن يحيى ليتحدث إليهم.. لم يلحظ أحد متى اختفى كبير المرضين ومتى عاد.

أشار للرجال الذين أمسكوا بيحيى أن يتركوه.

لم يصدق نفسه حين وجدهم أمامه.. سأله أحدهم:

ـ ماذا تريد؟

قال يحيى بلهفة:

ـ أريد أن أدرس الطب.

غطى الشحوب وجوه المرضين والأمن، علت الضحكات وجوه أعضاء اللجنة، تبادلوا كلمات هامسة بين بعضهم والبعض..انتهت بقول أحدهم:

- good

Very good

تريد أن تصبح طبيبا؟

....

أشار بيده ناحية المبنى الإداري البعيد وقال:

ـ وما المانع..

لم يلحظ عايد ومحمود غيابه إلا في الصباح.. اعتادوا أمسياته التي يعود منها متأخرا.. غالبا بعد أن يغلبهم التعب والنوم.

عايد حين استيقظ وجد سريره مرتبا كما هو.. حاول فتح باب العنبر لكنه لم يفتح.. أيقظ محمود وقال له:

ـ يحيى لم يبت بالعنبر!

فرك عينيه وقال بدهشة:

ـ أين سيذهب؟

القلق داهم عايد.. لا يوجد غير مكان واحد يذهب إليه الجميع .. هل ذهب يحيى إلى الغرفة.. ترى ماذا فعل ليذهب إلى هناك؟!

حين حكى لهما ما حدث وصماه بالجنون.. لا يوجد عاقل يفعل ما فعله.

أيام عصيبة مرت عليهم، القلق أصبح ساكنا دائما لأسرتهم التي لم تنم لليالي في انتظار ما هو آت.

لكن الأيام مرت ولم يحدث شيء بخلاف المعتاد.

ظلت عينا يحيى مثبتتين على السماء الزرقاء البعيدة، كان يراها رحيبة برغم كل الأسقف والجدران العالية. هل يستطيع الحلم أن يفعل بالإنسان ما فعله المعطف والقفاز بيحيى؟.محمود وعايد كانا يتتبعان ابتسامه هازئة ترتسم على وجهه.. هزه محمود وسأله:

ـ هل تتوقع شيئا؟

ـ عن ماذا؟

ـ عربة الإسعاف التي دخلت إلى المستشفى؟!

ظنوا أن يحيى ينتظر أن ينشق السقف ويعطيهم جوابا.. أن ترسل السماء وحيا يفك الطلاسم التي تحاصرهم وتستعصي على عقولهم.لحظات وجوم مرت قبل أن يرنو يحيى إلى وجههما ويقول بفتور:

ـ ربما مرض الطبيب.

خبط محمود كفيه ببعضهما وقال متعجبا:

ـ هل يمرض الطبيب؟!

....

على وجهه ارتسم وجوم غامض، تجسد الاندهاش كائنا كاملا أمام عينيه، الحيرة نازعته مكانه.

هل تسرع في سؤاله .. أليس الطبيب بشرا مثلنا.. مخلوق من طين الأرض

الزائلة إلى فناء..ألم يفكر يحيى ويحلم أن يصبح طبيبا؟!

أجفل محمود وقال مخاطبا نفسه بصوت سمعه صاحباه:

ـ إذا كان الطبيب مريضا

فلِم تحضر عربة الإسعاف إلى هنا لتحمله وتذهب به بعيدا

....

لِم لا يداوى في المستشفى مثل باقي المرضى؟!

عايد لم يستطع أن يمنع كلمات خضر أن تعاود طرق أذنيه من جديد.. قال إنه رآه ذات مرة.

حينها كان عايد يوشك أن يؤمن بأن وجود الطبيب ما هو إلا وهم سيطر على رؤوس المرضى واحتلها.. وهم لا وجود له إلى في خيالاتهم المريضة.. وهم يدفعهم إلى التعلق بقشة وسط بحر هادر الأمواج.. وهم من صنعه البرشام والمخدر والإبر التي تغزو أجسادهم صباح مساء.. وهم صنَّعوه وألبسوه المعطف والقفاز وتركوه يسير بينهم حتى صار حقيقة يبحثون عنها وسط زنازينهم إلى ما لا نهاية.

لكن خضر قال إنه رآه!

منذ سنوات بعيدة لم يستطع أن يحصي عددها.. ثلاثون أو أربعون عاما.. كل ما أذكره إنني حينها كنت شابا موفور الصحة والحلم.. كانت الحياة بالمستشفى تمثل لنا جميعا كل شيء.. المستشفى في بداية إنشائها.. جهات

كثيرة تقف ضد أن يكتمل بناؤها.. كانوا يرون فيها خطرا على مشاريعهم ليستنزفوا بها طاقة البشر ويسلبونا القدرة على فعل أي شيء.. كان همهم الأول والأخير أن يقتلنا الإحساس بالعجز قبل أن يضطروا إلى إطلاق فوهات بنادقهم ودانات مدافعهم نحونا.. لكن النزلاء كان يقودهم الحلم ليفعلوا أي شيء.

لم يكن بيننا مريض واحد.

لن تصدق أن كل هذه المباني بنوها طوبة طوبة.. رصفوا الطرق ولونوها بسمرة وجوههم التي حرقتها الشمس.. تلك الأشجار الخريفية التي تتراص حول الإسفلت كشواهد لقبور غرسوا لبنتها وظلوا يحلمون بأن يستظلوا تحتها في ساعة هجير.

لم يكن أحد يفكر في شيء إلا بناء المستشفى لتصبح الأفضل بين مستشفيات المنطقة كلها.

الطب ليس غريبا عنا.. الفراعنة كان لهم باع طويل في أساليب العلاج المختلفة.. حضارات كثيرة قامت واندثرت دون أن يحس بها أحد.. لكننا رغم كل شيء مازلنا هنا.. ابن النفيس أول من اكتشف الدورة الدموية.. فلماذا لا نصبح امتدادا لهؤلاء؟.

كنا نرى بأنفسنا القوة والقدرة على الفعل.

نملك حلما لا حدود له، حقول من النعناع الأخضر تزهو أمام عيوننا.

ساعتها كان بإمكان الطبيب أن يقودنا إلى المستحيل.

لكن ما الذي تغير؟!.

لا أحد يعرف.

هل لأننا صامتون بلا ثمن؟!!

....

كان يسير فوق هذه الطرقات.. يدهس بقدميه أسفلتها الطري تحت الشمس الحامية، ينزل بيننا، نتغنى معا بالحلم، نستشرف خيوط فجره الأولى بفرح وننتظر تباشير الصباح.

أحيانا يجلس معنا، نجتمع حول طاولات الطعام، يتذوق من أكلنا المسلوق، خضارنا الذي نبت بالأرض ورواه عرق الرجال.

يشير إليه ويقول: "ما أطيبه.. ما ألذه.. هل تعرفون إنه سر الصحة والعافية.. يكفي أنه يبعد عنكم شر الكروسترول.. كثير من الغربيين نباتيون.. لا يأكلون لحوم الحيوانات ولا يتذوقونها".

ساعتها كنا نصدقه.. كان طعامنا له طعم فاكهة الجنة التي رسمتها أخيلتنا.. لم يكن له تلك المرارة التي تسكن حلوقنا.. حتى عندما يقرصنا الجوع كنا سعداء.. نربط على بطوننا ونغني من أجل حلمنا.

من جانبه يبذل قصارى جهده، يقترض ليسمح للحوم أن تهدهد بطوننا ولو مرة كل شهر.

لم يكن هناك فارق بين طبيب أو مريض أو عامل أو ممرض!

هل تصدق ذلك ؟!

....

لكن لم يعجبهم تواجده بيننا.

ظلوا يدفعونه ليدخل إلى المبنى الإداري ويجلس فوق كرسيه الوثير، يستمع ولا يرى.

التفوا حوله كأحرار الإسكندر الذين دعوه ليحتفلوا معه بانتصاراته.. (لكن دون أن تلعب برؤوسهم الخمر كأحرار الإسكندر.. كانوا واعين لأطماعهم ولرغباتهم).

لم يكتفوا أن يجعلوا اسكندرنا أحسن من فيليب المقدوني.. بل جعلوه في مصاف الآلهة.. لا يحق لمرضاه إلا الطاعة والشكر!

ولم يكن بيننا (كليتوس) الذي يصرخ في وجهه: (**ما لهؤلاء المادحين لك ينزلون من أقدار السابقين ليرفعوا عليها مجد الحاضر**).

رغم إننا جميعا سنلقي مصير كليتوس، دون أن ينتحب قاتلنا ويبكي كالمجنون:

- **كليتوس**

كليتوس

....

حبيبي.. لماذا قتلتك؟!

نصحوه نصيحة يا جو لعطيل.. لكنه لم يفق أبدا وعاش مخلصا لصديقه الخائن ولم يصدق براءة فاتنته ديدمونة.

ـ من هم ......؟

ـ ليسوا وحدهم

نحن أيضا تركناه.

يوما بعد يوم كنا نضع قالباً في جدران زنزانتنا دون أن نعرف.

ذلك الكرسي الملعون الذي حبسه هناك وحبسنا هنا.

أسروه بالنفاق وبتصويرنا كأشباح إن خرجت من قمقمها ستلتهم كل شيء وأسرونا بالعجز الذي ولد الخوف والجبن والأسى.

لم يستطع كل منا أن يفك أسره حتى فتك بنا المرض.

ثلاثون أو أربعون أو خمسون عاما مضت!

ظل عايد يردد في نفسه قبل أن يتكلم ويهمس لصاحبه:

ـ لا بد إنه مرض الشيخوخة..

طبيبنا ربما تجاوز الثمانين ونريده أن يطيب جراحنا!!

١٠

((مشرحة بغداد تستقبل ٦ آلاف جثة خلال ٥ أشهر بمعدل ٤٠ جثة يوميا))

أعلنت إحصائية صادرة عن مشرحة بغداد أن المشرحة تسلمت خلال الأشهر الـ٥ الماضية أكثر من ٦ آلاف جثة قتلت معظمها رميا بالرصاص وبدا عليها علامات التعذيب والحرمان والصعق بالكهرباء، وذكر العاملون في المشرحة أنهم يتسلمون ما بين ٣٥ و٤٠ جثة يوميا.

لم يكن رآه منذ فترة.

الأيام الأخيرة أثقلها الترقب لما يدور وتداول الشائعات، لا أحد يعرف شيئا، التنقل بين المباني بات حذرا ولفترات محدودة.

يبدو الطريق منفرا.. النوافذ غطى أجفانها الغبار والنعاس.. العيون احتلها ورم رمدي.. دوائر حمراء منعتها أن ترى الأشياء فأغمضت أهدابها بألم.

ريح صفراء تعوي من بعيد، تشعل أجواء المستشفى كله بالرعب.. ريح تزرع الكآبات التي تسحق الصدر.

ـ أين أنت يا خضر؟

في مثل هذا الوقت كم كان بحاجة إليه.

تاهت خرائط كل شيء ولم تعد الملامح واضحة. دخان كثيف غطى الأفكار

واللغة والمعاني بلونه الرمادي الثقيل.

اختلطت الحدود ولم يعد هناك بشر من لحم ودم.

باتوا كائنات من ورق خلفته الحرائق.

كان بحاجة إلى كلماته المشجعة بين تلال الإحباط التي تنمو وتتكاثر كسرطان.

لم يترك أحدا لم يسأله.. بحث بالكافتيريا وبين الممرات وفى العنابر، لكن مرارة الخذلان أضافت إلى حياته قتامة لا تطاق.

يريد أن يعاند قلقا أنغرز في صدره على حياة خضر بتصفح الأخبار التي تقذف بها الصحف وجهه كل يوم، لكنها لم تكن تحمل إلا معاول هدم لكل شيء، أطنان من اليأس يتجرعها بأسى.

لا يعرف لِم يرى شبها إلى حد التطابق بين ساكني المستشفى وحال العرب.. الاستجداءات والاستنجادات بأمريكا تسود صفحات جرائدهم.. لا يرون في العالم إلا تمثال الحرية الرابض كأفعى هناك عبر المحيط البعيد.. ينتظرون منه جرعة الدواء أو حقنة الرحمة.. يشتكون أمريكا الغازية لأمريكا الحامية مثلما نشتكى الطبيب للطبيب.

نحن وهم سواء.

يطوفون بمبنى الكونجرس والبنتاجون ويسجدون عند البيت الأبيض،

ونحن نطوف بالصيدليات من أجل مخدر أو مسكن ونسجد عند المبنى الإداري حيث يسكن الطبيب.

الطبيب الذي لم نعد نعرف عنه شيئا.. هل مازال حيا أم ميتا.. يعيش معنا بين أسوار المستشفى أم غادرها للعلاج لمستشفى آخر أكثر أمنا؟.

لو كان خضر معه الآن ربما دله إلى خيط يقوده إلى حقيقة.. كان يعرف أن نفسه تهفو إلى المعرفة ولم يبخل عنه بما يستطيع.. لا يعرف كيف منح كلماته صك العبور إلى فؤاده بلا مقابل؟!.. كيف لا يصدقه وهو الذي قال إننا وصلنا إلى قمة الجبل ولم يبق بعده إلا أن ننزل إلى السفح.

حينها سأله كبير المرضين:

ـ ماذا تقصد يا خضر؟

نظر إليه بعينين فارغتين صامتتين.. أنسدل جفناه في هدوء أليم وقال:

ـ جبل الحرية!

جبل التقدم! ..

جبل القوة!

جبل النخوة!

....

كما تريدون؟!!

جر خطواته ولم ينظر إلى عينيي أحد منا وتركنا وغاب.

من حينها يا عايد لم تره.

هل كان يقصد أن تكون كلماته الأخيرة؟!

ظل يطارد الهاجس البغيض عن رأسه.. لو أرادوا التخلص منه لفعلوا منذ زمان بعيد .. لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه رغم كلماته التي تكفل أن تزيل الحواجز بين غرباء.. تجمع الشتات الذي غرسوه بيننا.. كان يركب خيل كبريائه ويقول ما يريد دون أن يستطيع أحد منعه.

الوحيد من بين النزلاء الذي لم يأخذوه إلى الغرفة ولم تصل أياديهم إليه.. لم يجدوا معه سبيلا إلا طعنه من الخلف.. تساءلوا في خبث عن السبب الذي جعله لا يدخل إلى الغرفة أبدا، بينما كل من عرفهم ذهبوا منقادين إلى هناك.. سرت همساتهم بين المرضى كما تسرى النار في القطن.. كثيرون امتنعوا عن الاقتراب منه..كثير من المرضى ردد ما يقولون بغباء.

لكن عايد لم يصدقهم أبدا.

عندما ينظر إلى ما خلفه وراءه من عمر مسروق ويراه مثقوبا مثل غربال، يلقي بكل تفاهتهم خلف ظهره.

كيف يصدق ادعاءاتهم وقد ترك كل شيء وراءه ولم يراهن مثل كثيرين على حسابات المكسب والخسارة؟!

في إحدى المرات استفزه صمته على ما يروجون من شائعات..سأله:

ـ ألم تذهب إلى الغرفة أبدا؟!

صمت خضر للحظات قاسية.

ظلت نظراته منكفئة على الأرض، كأنه ينظر إلى قاع سحيق حبسوه فيه طوال سنوات بعيدة، نفث دخان أعماقه المشتعلة وقال:

ـ الغرفة الملعونة؟!

....

من منا لم يدخلها

الغرفة ليست مجرد جدران زنزانة

ليست مجرد أكوام من السواد الحالك..

ليست مجرد أسلاك شائكة ودماء متخثرة تتساقط من أجساد

أنهكها التعذيب والمرض..

....

الغرفة أصبحت أضيق من أي سجن أو سجان..

أضيق من سم الخياط.. لقد حبسونا جميعا داخل أنفسنا الهشة.

....

عندما ييأسون من شخص مثلي

لن يحتاجوا إلى اقتياده إلى هناك؛

لأن المستشفى كله أصبح غرفة تضيق يوما بعد يوم.

دمعتان نائمتان بعينيه منذ سنوات استيقظتا على حين غفلة وسقطتا.

ـ لم يتركوني بين النزلاء إلا ليثبت لنفسه صدق ما يردده المنافقون على أسماعه.

يريد أن يسمعهم كل يوم يتساءلون عن السبب في ترك شخص مثلي دون عقاب، فيرسم على وجهه ملامح السماحة

ويردد بثقة: (إنها الديمقراطية)!

****

منذ دخلت عربة الإسعاف إلى المستشفى أصبحت الشائعات ترتع بين الجدران كما تشاء.. لا تترك بابا إلا وطرقته.. لم تترك أذنا إلا وسوست إليها بحكاية جديدة.

حوادث غريبة جرت متوالية.. انفرط عقدها وتساقطت واحدة بعد أخرى، كأنها تحذر من مصير قاتم يتهدد كل من يسكن المستشفى.. لن ينج منه أحد.

المستشفى كما يقول خضر بدأ كحلم طاف بخيال النزلاء والطبيب، لكنه

انحرف إلى كابوس يفزع الجميع في كل وقت.

كل من في المستشفى خضع لتفتيش دقيق لم يستثن منه أحد.

عجائز أو شيوخ أو نساء، حتى المرضون والأمن طالهم التفتيش.

نقبوا بين العنابر وفي خزانات الملابس والأدراج.. ثقبوا المراتب ونثروا نتف القطن على البلاط وألقوا الملاءات والملابس والمشاجب بكل مكان.

لم يعلموا سببا لما يدور بين الجنبات ولم يصل أحدهم إلى تفسير لما يحدث.

تعللت الإدارة بتنظيم مؤتمرات طبية وزيارات الوفود الأجنبية لكسر عادات الجمع وبقاء النزلاء بالعنابر لأطول وقت.

شاشات العرض غافلت المرضى بوقت متأخر من الليل وعرضت فيلم بورنو!.. في اليوم التالي لم يكن للمرضى حديث إلا عما جرى ليلة أمس.

من فاتهم العرض أنصتوا بشغف لمن تابعوه.. ليلة كاملة في مطارحة أحلام ممنوعة، جعلت الوجوه شاحبة ومتعبة وقلقة.

الطاولات لم تشهد اختلاطا بين النزلاء والنزيلات، انقسمت إلى قسمين يفصل بينهما جدار من أفكار ورغبات.

لم تستطع النظرات أن تتواجه.. الأرامل الشابات كن عصبيات بإفراط.. العيون لونها الاحمرار والألم.أحدهم قال لعايد إنه لم يكن فيلما بمعنى الكلمة!!

حين دخل يحيى عليهم صمتوا.. ريح عصفت خارج النوافذ أطاحت بمفارش الطاولات.. العيون تراكضت في كل الأنحاء بلا هدف.. بعضها يهرب بحثا عن مخبأ.. الأخرى تقافزت مثل حيوانات نهمة تبحث عن فريسة لالتهامها.. النزيلات غمغمن للحظات وتركن المكان إلى عنابرهن..

إحداهن شردت عنهن باتجاه يحيى.. ظلت صامتة للحظات قبل أن يغالبها النشيج.. بصقت على وجهه وأجهشت في بكاء طويل ولحقت بصاحباتها قبل أن يرتج الباب وراءهن صاخبا وعنيفا.

لم يع يحيى ما يدور بين النزلاء.. لم يغرزون نظراتهم بجسده الهزيل.. لم بصقت نجاة ناحيته وأجهشت في البكاء؟!

بات المستشفى كله يعرف إلا هو

في رؤوسهم تتصارع الأفكار.. الشياطين الصغيرة نقرت رؤوسهم ليلا والآن تركتها لملائكة الفضيلة.. أحدهم صاح:

- **هذا الزنديق لا يجلس معنا**

صوته كان قاسيا مثل يد تمسك بسكاكين حادة تنغز في القلب.. التفت يحيى ناحيتهم.. خال أنه ليس المقصود، لكنه رأى عيونهم تحدق فيه وحده وترشقه بنظرات حانقة.. بدا أن الألم يعتصر روحه.

ارتاع وجهه.. ما الذي حولهم إلى جناة قساة لا هم لهم إلا نهش روحه وجسده؟!

رأوه يحاول إبعاد نظراته عنهم ليبحث عن سجن صغير ويحبس نفسه فيه.. يختبئ من طوفان غضب أعمى استولى على القلوب والعيون.. كادت خطواته تسبقه إلى خارج المكان، لكنهم منعوه بأجسادهم.. أغلقوا في وجهه الطريق إلى الهروب.

- ....

لم تخرج الكلمات.. احتبست في الحلق الدامي أو ضاعت بين صخب الحناجر المتحفزة!

- **يجب أن ننظف المستشفى من أمثاله**

- **الزنديق!**

تشابكت الأيدي والأقدام والطاولات.. طارت المقاعد فوق الرؤوس وهشمت زجاج النوافذ.

تكوم النزلاء فوق يحيى وأسقطوه أرضا.. تكالبت الأيدي والأقدام عليه.. ظلت تدهس وتركل وتضرب.. غِلٌّ كامن في النفوس أطل من فوهة قمقم ولم يستطع أحد إعادته إلى مكانه ثانية.

عايد لم يعرف ماذا يفعل؟

مسام جلده تزفر بالحنق والضيق والخوف.. ظل يصرخ في المرضين والعاملين.. استنجد بأمن المستشفى

- **سيقتلونه**

سيقتلون يحيى

سيقتلونه

....

افعلوا شيئا

لم يتحرك أحد.. ظلوا يراقبون ما يحدث وعلى وجوههم ترتسم ابتسامات قميئة.. ابتسامة لها مخالب تنهش ما تبقى من يحيى.. تعري النزلاء وتنهش أجسادهم.

حاول أن ينفذ بين النزلاء ويمنعهم عنه، لكنه وجد نفسه هشا مثل إسفنجة معطبة.. حزنه تحول إلى غمامة سوداء تفرد ظلها على المكان.. جر خطواته وظل يبكي:

- أين أنت يا خضر؟!

لو كان خضر موجودا لما فعلوا ما فعلوه بيحيى.. كان سيعترض طريقهم.. سيصرخ فيهم.. أولئك الذين يلبسون رداء الفضيلة الناصع البياض نسوا إن اليوم الذي تخرج فيه شاشات العرض وتعرض كل ما سجلوه سيأتي.

كان يجب أن يكون موجودا بينهم

يفسر بعض ما حدث وسيحدث

هل مرض الطبيب ونقلوه إلى مستشفى آخر؟

ومن سيعالج هؤلاء.. من سيزيح عن عيونهم الغمامات السوداء التي ارتضوها و لا يريدون التخلص منها.. لم يعد بأمكانهم مصافحة الحقيقة أو القدرة على الرؤية إلا بنظاراتهم الغائمة.

تفاصيل كثيرة وقعت

باتوا لا يخشون أحدا.. أمور لم يتخيلها البعض.. كبير المرضين رآه الكافة يحمل كراتين الدواء ويخرج بها من المبنى دون أن يستوقفه احد.. عند البوابة اكتفوا بأوراق العملة التي تركها بالدرج المفتوح وتركوه يمر.. رجل أمن بالمبنى الإداري استدرج سنيه إلى منطقة غابات الجازورين واعتدى عليها.. لم يرأف لمرضها وحالتها.. ظلت تصرخ وتستغيث، يتردد صدى صرخاتها واستغاثاتها في الطرقات وبين المباني الشاهقة.. سمعها بعض المرضى وهرعوا إليها.. لم يصدقوا أعينهم.. حتى سنيه استباحوها!

دموع كثيفة احتبست بالعيون.. الأسى حاصرهم مع رجال الأمن الذين التفوا حولهم من كل جانب.. أزاحوا الجاني بعيدا ونزلوا بهراواتهم على جسد الضحية.. المرضون راحوا يمصمصون شفاههم أسفا.. قالوا إن حالتها خطيرة.. الاضطربات النفسية تجعلها تتخيل حدوث أشياء لا أساس لها.النزلاء صدقوهم رغم أن سنية لم تقل شيئا.. لم يكن باستطاعتها إلا الصراخ.. عيونهم هي التي رأت وشاهدت ما جرى.

لم يعد أحد متزنا أو عاقلا بهذا المستشفى!

أسئلة لا حصر لها تطوف وتتراكض بين الغرف والممرات والعنابر.. هل مات الطبيب وينتظرون مجيء طبيب آخر ليعلنوا وفاته.. هل عاد الطبيب حقا واحتل كرسيه بالمبنى الإداري كما يردد المرضون؟

لم نعرف يوما إذا كان الطبيب موجودا بيننا أم لا.. حتى من قبل أن

تدخل عربة الإسعاف إلى بهو المستشفى وتركن مؤخرتها هناك لم نكن نعرف.. حسين قال لمحمود إنه مثلنا لا يعرف شيئا.. أحيانا لا يجد فارقا هاما بين النزلاء والأمن.. لا أحد هنا يعرف شيئا.

عند غرفة العناية منعوا عايد ومحمود من الاقتراب.. لن يسمح لأحد بزيارته.. قالوا إن خطرا يتهدده.. منعوا الزيارات وشددوا الحراسة عليه خوفا على حياته.. حالته الصحية أيضا خطيرة.. إصابات متفرقة بأنحاء جسده.. بعضها كان غائرا وعميقا وربما يستدعي إجراء جراحة أو أكثر.

محمود قال إن يحيى لن يعود.

إن نجا من أيديهم فلن ينجو من جدران الغرفة.

- انسَهُ يا عايد

انسَهُ لنواصل حياتنا كما هي العادة.

١١

- أللعنة على رائحة الفورمالين

لا تترك مكانا إلا وغزته

....

ماذا بكم

ألا تزكم أنوفكم؟!

....

ما الذي تنتظرونه

أتنتظرون أن تلقَوا مصير عم خضر

أم مصير يحيى؟!

منذ الصباح يحلق طائر الموت بجناحيه السوداوين في سماء المستشفى.. ينعق بلا انقطاع.. يدق باب الغرف والعنابر والأجنحة:

– أحدهم مات

تنقبض الأفئدة وترتعش الأجساد.. تطل الأسئلة بلهفة من الرؤوس.. (من الميت الجديد؟).. لا أحد يجيب.. أسماء كثيرة تصلح إجابةً لهذا السؤال.. عايد كان يعرف.. هذه المرة لم ينتظر إجابة لن تجيء.. لم يعدموا

ميتا كل يوم.. تدوي الصافرات ببساطة وينادون على وفاة أحدهم ثم يواصلون حياتهم كأن شيئا لم يكن.. ما الفارق أن تدهسه المجنزرات أو تدكه طائرات الـ بي 52 أو تصطاده دانة ميركافا .. ما الفرق إن مات بين جدران الغرفة أو بين أسوار المستشفى أو فوق أسرة المرضى.. الموت عندنا سلعة رائجة بأي حال.. سلعة نجيد تقديمها بلا ثمن.

خرجوا من عنابرهم وانتظموا في طوابير حتى باب المشرحة.. وقفوا عيونهم تترقب خروج النعش، بينما عينا عايد كانتا تتسابقان إلى البعيد اللا مرئي.. تنبش بين الركام عن عايد الذي ضاع منه، عايد الذي فارقه على عتبات الغرفة الملعونة.. عن ذاكرة ملأى بالخوف والرعب.

لا بد إن خضر ينتظره هناك.. حيث لا توجد أسوار أو جدران.. ينبش عن حلمه الذي سرقوه وأودعوه كتب التاريخ.. دفنوه بين الأسطر.

أنا هنا يا عم خضر

لست أول المؤمنين ولن أصبح آخرهم

لن يستطيعوا أن يدفنوا الحلم ويهيلوا التراب عليه

لن تقوى زنازينهم على حبسه

لن يستطيعوا أن يمحوا كلماته من بين الأسطر

لن يصبح قانونهم دينا جديدا حتى إن حمته دباباتهم وطائراتهم.. حتى

إن أصر أطباؤنا على كتابته في رو شتات العلاج.. حتى إن بات العلاج الوحيد المتوفر بالصيدليات وعند باعة الوهم على أرصفة شوارعنا الطيبة.

لن يستطيعوا

لابد أن خضر ينتظره هناك

لا بد أن الجثة التي ينتظرون خروجها في نعش خشبي لآخر غيره.. كيف سيصدق أنها لخضر؟!

عيناه كانتا تبرقان بومضة يعرفونها جيدا.

إذا برقت في عين أحدهم احتلته طيلة العمر.

رأوها في عيني خضر

رأوها في عيني يحيى

رأوها في عيني سهام

كانوا يشفقون عليه من تلك الومضة ومن مصير من احتلتهم، لكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من السؤال:

- وماذا لو نجح هذه المرة؟!

كانت أنفسهم محزونة ومطفأة مثل مصباح سوده الدخان والعجز.. حملوا النعش وصاروا في طريق غير مستوٍ وملآن بالحصى والأحجار التي لا تدع قدما تستقر في مكانها.. تمايلوا مثل سكارى أثكلهم الألم.. تخطوا الزراعات حتى وصلوا إلى شواهد القبور.. أنزلوا النعش عن أكتافهم المثقلة ووقفوا صامتين.

غافلهم وشد الغطاء من على الجسد المسجى.. اشتم أنفه رائحة غريبة، أشد وطأة من رائحة الفورمالين الثقيلة.. ظل يحدق فيه، يتفحص الملامح الباردة.

اضطربت الحدقتان.. تقلصت ملامح الوجه.. ابتعد بحركة تشبه رقصة حيوان مذبوح.. في حركة واحدة دار بالجهات الأربع.. ظل أسير المشهد المستحيل.. ينقب في أخاديد الذاكرة الحبلى بأكاذيب وتهويمات عن شيء شبيه.. (مهما سرح به الخيال وشطحت الأفكار والتصورات لن يتخيل ما فعلوه!).

لم يخطر بباله ما رأته عيناه.

أخذ نفسا طويلا معتقا برائحة الاحتراق وشد الغطاء ثانية على الوجه الشائه.

النزلاء حملوا الفؤوس وانكبوا على الأرض يحفرون قبرا جديدا.. حولهم يتطاير غبار الموت.. يصفع الوجوه، يحاول إيقاظها من غفلتها الممتدة.. الاعتقاد بأن الخوف يضمن مكانا آمنا تحت السماء لن يبدل حقائق الأشياء.. العالم لن يصبح مكانا للخائفين.. الذين يجدون في خوفهم ملاذا ستطولهم النيران .. ستلاحقهم ريحها أينما ولوا وتبددهم كدخان ورماد.

لا أحد من الملتفين حوله يريد أن ينتبه.

لعله فهم من إيماءة رؤوسهم موافقة ضمنية على تأجيل الموعد المنتظر.. كل

همهم ألا تحملهم الأكتاف في نعش اليوم ليلحقوا بالسير في جنازة الغد.. السير في الجنازات أصبح عادة يستلذون بها.. عادة يقضون بها أيامهم الرتيبة.. الأيام التي لا تعرف لغة سوى لغة الموت والعجز.

– أي انتظار هذا؟!

تركهم يدفنونه وسار وحيدا بين الشواهد.. تطارده نظرات قلقة مستريبة.. دمى تتلاعب بها أصابع وتحركها كما تشاء.. يشق لنفسه طريقا بين صمتهم ويمر.. بدوا من بعيد مثل خرق باليه.. خيالات مآتة، في أرض جدباء، تتلاعب بها ريح لا تُرى.. ينأى ببصره عنهم إلى الشواهد.. يقرأ ما دونوه بواجهاتها.. ١٨٥٠.. ١٨٨٧.. ١٩١١.. ١٩١٨.. ١٩٢٣.. ١٩٤٥.. ١٩٤٨.. ١٩٥٣.. ١٩٦٧.. ١٩٧٥.. ١٩٧٧.. ١٩٨١..........

٢٠٠٠..٢٠٠١.. ٢٠٠٣.. ٢٠٠٤.. ٢٠٠٥.. ٢٠٠٦..٢٠٠٧......

٢٠١٨...... الخ.

مجرد تواريخ دونت بلا أسماء.

تواريخ لا حصر لها.. خوف وقهر وهزائم.. لن تتذكرهم صفحات الوفيات ولن تعرفهم سجلات الموتى.

ترامى إلى سمعه جلبة أصوات تتعذب.. صرخات حادة موجعة.. أجساد تفوح منها رائحة الاحتراق.

استنجادات واستغاثات

– الطبيب.. الطبيب

لن يظل في انتظاره إلى الأبد حتى يساق إلى مقابرهم كتاريخ بلا اسم أو هوية.. لن يجوب الأرض ليجمع الأزهار ويغرس الصبار عند مقابر الموتى في انتظار ما لا يأتي.

ـ الانتظار الملعون!!

صدى صوت خضر يرن في الفضاء كطبول الحرب.

يسمع ركض خيول جامحة في خلاء.. خلاء ممتد بلا نهاية، تغطية سماوات خلعت غيومها وسطعت فيها شمس جديدة.

عليه أن يسير في الفضاء اللا محدود.. لا يضع حسابا للتصورات والتأويلات التي وضعوها مسبقا.

كل شيء حوله يدعو للركض والقفز.. يتخطى كل الأحجار والخنادق.. يدهس بأقدامه الأسلاك الشائكة غير عابئ بخيوط الدم التي تلاحقه.

حين ارتد بنظره إلى الوراء تطلع إلى ناحيتهم، لم يجد خلفه إلا سرابا ممتدا.

رنا إلى السماء الواسعة.

خلعت الغيوم أرديتها الرمادية لأول مرة.. رشقته غيمة بزخة مطر.. ابتسامة فرح طافت برأسه المتعب.. هدأت أنفاسه اللاهثة وتأمل الفراغ

المتد.. لم تكن ثمة أسوار أمامه.. سار بخطوات واثقـة غـير عـابئ بمـا قـد يجده هناك، خلف الفراغ البعيد.

تمت

عن الكاتب :

أحمد طوسون

قاص وروائي

إصدارات :

في مجال الرواية:

- **مراسم عزاء العائلة** — **دار شريف للنشر والتوزيع ٢٠٠٦**

في مجال القصة القصيرة :

- **القصص الفائزة بجائزة جنوب المتوسط** — **دار ميريت الإيطالية ١٩٩٧**
- **مجرد بيت قديم** — **على نفقة الكاتب ١٩٩٩**
- **شتاء قارس** — **إبداعات – هيئة قصور الثقافة٢٠٠٠**
- **عندما لا تموء القطط** — **هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٣**
- **فتاة البحر** — **أرابيسك للنشر والترجمة ٢٠١١**

في مجال أدب الأطفال :

- **حكاية خير البلاد** — **قطر الندى – هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٣**
- **حكاية صاحب الغزلان** — **دائرة الثقافة والإعلام – حكومة الشارقة ٢٠٠٦**
- **أحلام السيد كتاب** — **دار روائع مجدلاوي للنشر بالأردن ٢٠١٠**
- **دجاجات زينب** — **دار شريف للنشر والتوزيع ٢٠٠٩**

رقم الإيداع : ١١٣٩٠/ ٢٠١١

